اقدم النصوص المسيحيّة

●

سلسلة النصوص اللاهوتيّة

٩

عظات حول التطويبات

للقدّيس غريغوريوس النيصيّ

الخورأسقف بولس الفغالي

طبعة أولى

٢٠١٦

*

جميع الحقوق محفوظة

*

منشورات المكتبة البولسية

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب : ١٢٥

هاتف : ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ – فاكس : ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف : ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس : ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة – شارع سيّدة النجاة – مقابل مطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس : ٠٨/٨١٢٨٠٧

اقدم النصوص المسيحيّة

•

سلسلة النصوص اللاهوتيّة

٩

عظاتٌ حول التطويبات

للقدّيس غريغوريوس النيصيّ

الخورأسقف بولس الفغالي

٢٠١٦

غريغوريوس النيصيّ

تقديم

غريغوريوس، أو بشكل أسهل غريغوار، هو الأخ الأصغر لباسيليوس، ومع غريغوار النازينزيّ دُعيَ الثلاثة: «الكبّادوكيُّون». فهم من الكبّادوك في تركيَّا الحاليَّة. درس البلاغة وتعمَّق فيها قبل أن يكون أسقف بلدة صغيرة اسمها «نيصة» أو «نيصص»، الواقعة إلى الغرب من قيصريَّة الكبّادوك في وسط تركيَّا الحاليَّة. حين توفّي أخوه باسيل، غدا هو وارث لاهوت نيقية (٣٢٥) والمدافع عنه، بشكل خاصّ في مجمع القسطنطينيَّة سنة ٣٨١.

وكان له أن يدافع عن هذا الإيمان ضدَّ أونوم (أو: أونوميوس) أسقف أنطاكية. وترك الآثار الكثيرة مثل خلق الإنسان وحياة موسى... وصلاة الربّ... وأثَّر تفكيره تأثيرًا عميقًا في اللاهوت البيزنطيّ. وصل إلى مكسيم المعترف. وبعد أن غاب فترة، ها هو يبرز بقوَّة فتُدرَّس كلُّ مؤلَّفاته وتُنقل إلى مختلف اللغات الغربيَّة والعربيَّة منها، ولاسيَّما: حياة موسى أو الكمال في مجال الفضيلة (أكثر من ترجمة)، والرسائل، وحياة القدّيسة ماكرينا، وقد ترجمها كلَّها الكاتبُ الكبير، الأب حنَّا فاخوري.

في هذا الخطّ وبعد دراسة لحياة غريغوار النيصيّ، ومجمل مؤلّفاته، ها نحن نقدّم عظاته الثماني حول التطويبات. تحدَّث غريغوار إلى أبناء الرعيَّة وقدَّم لهم الديناميَّة الداخليَّة للتطويبات، كمسيرة للحياة المسيحيَّة باتّجاه الكمال والاتّحاد الموستيكيّ أو التصوُّفيّ. عرض تعليميّ، لغة بسيطة لا وجود فيها للانطلاقات الفلسفيَّة، لأنَّ الراعي يتكلَّم إلى محيط من المساكين الذين يتشوَّقون إلى البشارة الإنجيليَّة.

* طوبى للمساكين بالروح، فإنَّ لهم ملكوت السماوات. نحن نبحث على الغنى الحقيقيّ الذي لا يقلُّ حين نتقاسمه مع الآخرين، بل ينمو. من هو المغبوط؟ الله وحده، وهو يُشركنا في غبطته. انظر إلى المسيح الذي كان غنيًّا فافتقر من أجلنا. وأخذ غريغوار مثالاً من الذين أعطوا بملء إرادتهم، خيراتهم للفقراء.
* طوبى للودعاء لأنَّهم يرثون الأرض. ويُطرح السؤال: هل امتلاك الأرض أهمّ من ملكوت السماء، لتأتي هذه التطويبة بالدرجة الثانية بعد المساكين بالروح؟ ويشرح غريغوار معنى «الأرض» هنا ويربط الوداعة بالتواضع.
* طوبى للباكين الآن فإنَّهم يُعزَّون. يا للعبث! والتعارض! متى كان الحزن والبكاء سبب سعادة للإنسان؟ أجل، إذا كان يبكي خطاياه، ويتأسَّف على الحالة التي وصلت إليها البشريَّة بعد الخطيئة الأولى. هنا الانتقال من ملء النعمة إلى ملء الشقاء.
* طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنَّهم يُشبعون. أبعد غريغوار

الكلام على الحقوق والقاضي، وأعلن أنَّ البرَّ هو في متناول من يطلبونه. فالبرّ هو ما دفع يسوع لكي يخلّصنا. هنا يأتي مشهد تجارب يسوع ولاسيَّما التجربة الأولى: قدَّم إبليس ليسوع الحجارة بدل الخبز، أمّا جوع يسوع الحقيقيّ فليس إلى خبز بل إلى مشيئة الآب. ثمَّ إنَّ البرّ هو فضيلة تضمُّ في ذاتها جميع الفضائل.

* طوبى للرحماء لأنَّهم يُرحمون. نقطة الانطلاق سلّم يعقوب والربّ جالس في رأس السلَّم. والتطويبات تتدرَّج لتوصلنا إليه، حيث تكون الرحمة زهرة المحبَّة. نرحم القريب ولكنَّنا لا ننسى أن نرحم نفوسنا ونعي شقاءنا.

* طوبى لأنقياء القلوب فإنَّهم يعاينون الله. الله صخر يستحيل الوصول إليه، ولكن ينبغي أن نحاول، وذلك بنقاوة القلب، فلا نكتفي بأن نتجنَّب فعل خطيئة أو فعلين، بل نقتلع الخطيئة من جذورها.

* طوبى لفاعلي السلام فإنَّهم أبناء الله يُدعَون. مع هذه التطويبة ندخل إلى قدس أقداس الله، في تدرُّجنا الروحيّ. نحن أبناء الله. وهذا هو الخير الأسمى بالنسبة إلى طبيعتنا الشقيَّة، ممَّا يساعدنا على مشاهدة عظمة الله. ثمَّ إنَّ أعظم ما نتوق إليه هو السلام. ولكن يا لها من حرب قاسية ضدَّ البغض والحسد والغضب...

* طوبى للمضطهدين من أجل البرّ فإنَّهم أبناء الله يُدعَون. التطويبة الأولى والتطويبة الأخيرة تقدّمان الجزاء الواحد. فالاضطهاد يترافق

مع الإيمان. وخبر يوسف بن يعقوب هو أوضح مثال على ذلك. فبعد الاضطهاد هو الجزاء الكبير. سواء الجزاء المادّيّ مثل يوسف أو جزاء السماء مثل إسطفانس الذي مات وهو يغفر للذين يقتلونه على مثال معلّمه.

فإلى هذه التأمُّلات وهذه العظات نحن مدعوُّون، فنكتشف عمق الحياة المسيحيَّة وتدرُّج المؤمن إلى الكمال الذي يدعونا إليه اللّٰه وهو الذي قال لنا: «كونوا كاملين لأنَّ أباكم السماويّ كامل هو».

التطويبة الأولى

طوبى للمساكين بالروح

١ من منّا يستمع إلى الكلمة ليرتفع فوق الأفكار والتمنّيات الأرضيَّة، إلى الجبل الروحيّ، جبل المشاهدة؟ يَبرز هذا الجبل من ظلال الرذيلة التي تحيط به، فيضيء علينا من كلِّ الجهات بأشعَّة النور الحقيقيّ الذي يتيح لنا أن نكتشف في ضياء الحقيقة كلَّ ما يفلت من الذين يدوسون في السهل.

تعليم الجبل

إنَّ أمورَ وأبعاد ما ينكشف من العلوّ، يعرضها الله الكلمة ذاته، فيدعو مطوّبين أولئك الذين قاموا بالصعود معه. ويبيّن، في شكل من الأشكال، بإصبعه، من جهة ملكوتَ السماوات، ومن جهة أخرى، ميراثَ الأرض الجديدة. ثمَّ الرحمة والبرّ والعزاء، وقرابة كلّ الخليقة مع الله، وثمَرُ الاضطهادات الذي يوحّدنا بالسرّ الإلهيّ: كلُّ ما تجعلنا يدُ الكلمة نكتشف، من القمَّة، حين ننظر بالرجاء من هذا المكان الرفيع.

حين صعد الربُّ الجبل، لنسمعْ إشعيا يهتف: «تعالوا نصعد إلى جبل الربّ» (إش ٢ : ٣). وإن كانت الخطيئة أعيتنا، لنقوِّ أيدينا المرتخية كما يحثُّنا النبيّ على ذلك، ولنشدّد رُكبَنا المترنّحة (إش ٣٣ : ٣).

وحين ندرك القمّة، نلتقي بذاك الذي يشفي كلَّ مرضٍ وكلَّ علَّة، الذي أخذ على عاتقه ضعفنا، الذي اهتمَّ بآلامنا (إش ٥٣ : ٤). لنُسرع في الانطلاق لنصل مع إشعيا إلى قمَّة الرجاء، ونكتشف حوالينا الغنى الذي يكشفه الكلمةُ للذين تبعوه في الأعالي. ليفتحِ الإلهُ الكلمة فمَنا وليعلّمْنا ما يعنيه بالتطويبة.

الكنز المخفيّ

٢ نبدأ فنتأمَّل. نبدأ فنشرح الكلمات الأولى: «طوبى للمساكين بالروح، فإنَّ لهم ملكوت السماوات» (مت ٥ : ٣). إن اكتشف إنسانٌ طمّاعٌ وثيقة تدلُّه على مخبإ كنز، ولكنَّ الموضع المطلوب يفرض من الذين يشتهونه العرَق والجهد، هل يتراجع بسبب هذه الصعوبات؟ ويتخلَّى عن نعمة لامتوقّعة ويعتبر أنَّه من السهل أن لا يفرض على نفسه جهدًا وتعبًا بدلاً من أن يغتني؟ لا. ما هكذا تحدث الأمور، كما تعرفون. ولكنَّه يبدأ فيدعو أصدقاءه. ويجمع من كلِّ جهة جميع الوسائل المتاحة، ويجنّد كلَّ العمّال الذين يجدهم ليقتني الكنز المخفيّ.

يا إخوتي، هذا هو الكنز الذي يتكلَّم عنه الكتاب المقدَّس، ولكنَّ

الغنى يختفي في الظلام. فإذا كنّا نتوق إلى امتلاك الذهب اللافاسد، نضمُّ يدينا في الصلاة لينكشف لنا الكنز. فنتقاسم الاكتشاف وكلٌّ واحدٍ يمتلكه كلّه.

ونقول الشيء عينه على المشاركة في الفضيلة: فجميع الذين يطلبونها يجدونها، وكلٌّ واحد يمتلكها كلّها وما من إنسان يكون محرومًا منها. وفي توزيع خيرات الأرض، من يعطي نفسه أكثر ممّا للآخرين يسيء إلى الذين يتقاسمون معه، فتقِلُّ حصَّةُ الآخرين ممّا أخذه، ظلمًا، لنفسه.

أمّا الخيرات الروحيَّة فهي مثل الشمس. هي تُقسَم بين جميع الذين ينظرون إليها، وتعطي ذاتها كلّها لكلّ واحد. وبما أنَّ كلَّ واحد ينال من جهده ذات الفائدة، لتسندْ بحثَنا صلاةٌ نتلوها جميعنا.

ما هي التطويبة؟

ينبغي علينا أوّلاً أن نتطلّع إلى التطويبة في ذاتها. ثمَّ نبحث لنعرف بما به تقوم. فالتطويبة، في رأيي، هي مجموعةُ كلّ ما نفهم باسم الخير، بحيث لا ينقص شيء ممّا يمكن أن نرغب فيه.

وتحليل عكسها يمكنه أيضًا أن يعطينا تحديدًا للتطويبة. فالعوز هو عكس الحالة السعيدة. والشقاء هو مصير الشرور التي تنصبُّ علينا وتؤلمنا ضدَّ إرادتنا. فمن هذه الجهة ومن تلك ما يحصل لنا يتعاكس ويتعارض. فمن نقول عنه إنّه سعيد يسعه أن يفرح ويُسرّ بما يقدَّم له،

والذي نقول عنه إنَّه تعيس لا يمكن إلاَّ أن يشتكي ويندب حظَّه لما يحصل له. فاللّه وحده يستطيع حقًّا أن يُعلَن مطوَّبًا.

ومهما يكن من أمر، فالتطويبة تجمع حياة بدون وصمة، وتجمعُ الخير الذي لا يُوصَف والذي لا يُدرَك، وهي ينبوعُ النعمة والحكمة والقدرة والنور الحقيقيّ ومعينُ كلِّ خير، والقوَّة التي تسود كلَّ شيء. هي ما يستحقُّ أن يُحَبّ دون أن ينحطّ، وفرحٌ يتفجَّر دومًا، وابتهاجٌ لا ينقطع فنستطيع أن نقول عنه كلَّ شيء ولا علاقة بالاستحقاق. فالذهن لا يدرك واقعها. وحتَّى إن امتلكنا إدراكًا أسمى، لا شيء يسعُه أن يعبّر عنها.

على صورة اللّه

بما أنَّ الذي جبل الإنسان خلقه على صورة اللّه، نستطيع، في شكل ثانٍ، أن ندعو سعيدًا ذاك الذي يستحقُّ هذه التسمية بالمشاركة في التطويبة الحقيقيَّة. ففي جمال الجسم، نحكم بالدرجة الأولى على الجمال انطلاقًا من الوجه الحيّ والمعبِّر، وبعد ذلك انطلاقًا من الصورة التي تمثّله.

ونقول الشيء عينه عن الطبيعة البشريَّة، التي هي صورة التطويبة السامية وشبهها: هي تستحقُّ أن تُدعَى مطوَّبة وتحمل طابع الجمال السامي حين تكشف في حياتها ميزات التطويبة وتعكسها.

حين محا وسخُ الخطيئة جمالَ الصورة، جاء ذاك الذي غسلَنا في

مياهٍ تنبع وتتفجَّر حياةً أبديَّة (يو ٤: ١٤). فمُحيَ عارُ خطيئتنا واستعدْنا الطابع الطوباويّ.

ففي الرسم مثلاً، يستطيع عارفٌ أن يشرح للجهّال بأنَّ وجهًا جميل هو، إن تَناسقَ فيه كلٌّ ما يكوّنه: الشعر، العينان، الشكل، الحاجبان، طعجة الوجهين. فكلٌّ تفصيل يعمل بشكل خاصّ لجمال المجموع. والفنَّان الذي يرسم نفسنا على صورة المغبوط الوحيد، يصف في كلامه مختلف العناصر التي تكوّن سعادتنا.

الفقراء بالروح

تبدأ الخطبة بهذا الكلام: «طوبى للمساكين بالروح، لأنَّ لهم ملكوت السماوات».

٣ أيَّ فائدة نستخلص من جود الله إذا كنَّا لا نشرح معنى هذه الكلمات؟ ففي الصيدليَّة أدوية كثيرة، ثمينة ونادرة، ولكنّها تكون للجهَّال بلا استعمال ولا فائدة، إلى أن يُفهمنا العلمُ كيف نستعملُها. فما معنى «الفقر بالروح» الذي يجعلنا نمتلك ملكوت السماوات؟

الغنى الحقيقيّ والغنى الكاذب

عرف الكتابُ المقدَّس نوعين من الغنى: واحدٌ له ثمنٌ رفيع. والآخر يُشجَب. فالثمن الرفيع هو غنى الفضيلة. والمحتقَر هو الغنى المادّيّ والأرضيّ. واحدٌ تمتلكه النفس. والآخرُ يحملُ تجربة سهلة لحواسّنا. لهذا

يمنعنا الربُّ أن نكدّسه، لأنَّه معرَّض لفساد السوس وسرقة السارقين (مت ٦ : ١٩). فالربُّ يطلب منَّا أن نطلب الغنى السامي الذي يُفلت من الانحطاط. أمّا السوس والسارقون فيدلُّون على أعداء النفس.

الفقر الصادق والفقر الكاذب

فإذا كان الفقر يتعارض مع الغنى، فهناك، بالتوازي، فقرٌ وفقر. واحدٌ هو مرذول. وآخر يُعلَن مغبوطًا. فالذي هو فقير في الاعتدال، والذي ينقصه خيرُ البرّ والحكمة والفهم وسائر الخيرات الثمينة، يشبه المعدَم: إنَّه تعيس بسبب إملاقه وفاقته، وهو يستحقُّ الشفقة إذ تنقصه أثمنُ الخيرات.

وذاك الذي هو فقير بإرادة حرَّة، من كلِّ ما هو شرّ، الذي لا يُخفي في كنزه السرّيّ بعضًا من الخيرات الشيطانيَّة، بل تحترق روحه، فيعتني بأن يكون فقيرًا تجاه كلّ ما يخصّ الشرّير. فهذا يدعوه كلامُ الله مطوَّبًا باندفاع لأنّه فقير فيرث ملكوت السماوات.

من هم الفقراء بالروح

٤ ونعود إلى كلامنا ونسأل بمَ يقوم الكنز، ونحاول مثل العامل في المنجم أن نُظهر الخيط الثمين: «طوبى للمساكين بالروح». هذا ما سبق وقيل، ونستطيع أن نقوله ثانية: يقوم هدفُ الحياة الفاضلة بأن نكون مشابهين لله. .

فما هو من دون أهواء وبلا فساد، يُفلت من الاقتداء بالناس. فيستحيل حقًّا بأن تستطيع حياةٌ خاضعة للأهواء أن تقتدي بطبيعة من هو بدون أهواء. إن كان الله وحده مطوَّبًا، كما يقول الرسول (١ تم ١: ١١؛ ٦: ١٥)، وإن كان البشر يشاركون في طوباويَّته بتشبُّههم به، ولكنَّ الاقتداء يكون مستحيلاً، فلا تتحقَّق التطويبة بالنسبة إلى الوضع البشريّ.

وتواضع الله

ولكنَّ الإنسان يسعه أن يقتدي بالله، في شكل من الأشكال: «فالفقر في الروح»، كما يبدو لي، يدلُّ على التواضع. وأقوال الرسول تعطينا مثلاً فقْرَ الله الذي من أجلنا صار فقيرًا وهو من كان غنيًّا ليجعلنا نقاسم غناه بواسطة فقره (٢ كو ٨: ٩).

من جهة أخرى، كلُّ ما نستطيع، أن ندركه من الطبيعة الإلهيَّة، يتجاوز حدود وضعنا. ولكنَّ التواضع يجعلنا من طبيعة واحدة. ونحن نشارك فيه مع كلِّ الذين يعيشون على الأرض، وهم مجبولون بالتراب الذي إليه يعودون (تك ٢: ٧؛ ٣: ٩). فإن اقتدَيْتَ بالله في ما يوافق طبيعتك ويتجاوز إمكاناتك، ترتدي مثل معطف، شكلَ الله المطوَّب.

فلا نتخيَّلْ أنَّه هيّنٌ وسهل أن نقتني التواضع. بل إنّ هذا أصعب من اقتناء أيَّة فضيلة أخرى. لماذا؟ لأنَّ ساعة كان يرتاحُ الإنسان الذي

زرع البذار الجيّد، زرع العدوّ القسم الأكبر من البذار، زؤان الكبرياء الذي جعل جذوره فينا (مت ١٣ : ٢٣).

فمثْلَ ذاك الذي سقط في الذنب (آ٢١)، انجرَّ كلُّ الجنس البشريّ التعيس في السقطة عينها. فلا وجود في الواقع لكارثة أخطر لطبيعتنا من الكبرياء.

وضعُ العبيد

بما أنَّ جميع البشر تقريبًا مدفوعون، بشكل طبيعيّ، إلى التشامخ، بدأ الربُّ التطويبات، فأبعد الشرَّ الأوَّل، أي الكبرياء، ونصحَنا بأن نقتدي بالفقير (يسوع) الإراديّ الذي هو، في الحقيقة، مطوَّب، بحيث نقتدي به بحسب إمكاننا، بفقر إراديّ لكي نشاركه في سعادته الخاصَّة. قال الرسول بولس: «ليكن فيكم من العواطف ما في المسيح يسوع. فمع أنَّه في صورة الله لم يتعلَّق بمساواته مع الله، فلاشى ذاته واتَّخذ صورة عبد» (فل ٢ : ٥–٧).

أيُّ شيء أتعس لله من أن يأخذ وضْع عبد؟ أيّ شيء أصغر لَملك المسكونة من أن يقاسمنا وضعنا البشريّ؟ فملكُ الملوك وربُّ الأرباب، وديَّان المسكونة يدفع الجزية لقيصر. وسيّد الخليقة يعانق المسكونة، فيدخل في مغارة، لأنَّه لم يجد مكانًا في الفندق، ويلجأ إلى مذود في رفقة الحيوانات غير العاقلة. والذي هو نقيّ وبلا عيب اتَّخذ على عاتقه أوساخ الطبيعة البشريَّة. وبعد أن قاسمَنا كلَّ تعاستنا، راح يختبر الموت. فتأمَّلِ الإفراط في فقره الإراديّ.

الحياة (يسوع) تذوَّق الموت. الديَّان يُقاد أمام المحكمة. سيّد حياة الجميع يخضع لحكمٍ قاضٍ، وملكُ القوى السماويَّة لا يتهرَّب من أيدي الجلاّدين. قال الرسول: على هذا المثال يُقاس تواضعه.

انظرْ إلى ذاتك

٥ يبدو لي مناسبًا أن أبيّن لامعادلة الأهواء لكي تصبح هذه التطويبة تطويبتنا، فنعتني بالتواضع بسهولة وبدون مجهود. فالأطبَّاء المختبرون يبدأون باستبعاد أسباب المرض. عندئذٍ يقدرون أن يغلبوا الوجع. ونحن أيضًا. نريد أوَّلاً أن نعلّم المتكبّرين أن «ينفّسوا» تشامخهم، فنسعى لأن نسوّي الطريق السالكة التي تقود إلى التواضع. كيف نعلّم بشكل أفضل بلادة الكبرياء إلاّ حين نعي وضعنا البشريّ؟ فالذي يتطلَّع إلى ذاته بدلاً من أن يتطلَّع إلى الآخرين، لا يسقط بسهولة في مثل هذا الهوى.

ما هو الإنسان؟

وما هو الإنسان؟ أتريدُ أن أعطي عنه تحديدًا لائقًا وكريمًا؟ فالذي يرفع طبيعتنا ويؤكّد نبل أصلنا يقول إنَّنا مجبولون من تراب. والعظمة التي بها يتكبَّر المتشامخ هي من ذات طبيعة اللِبنات.

أتريد أن أكشف لك بشكل ملموس كيف دخلت إلى الوجود؟ ولكن لنترك هذا ولا نتكلَّم عنه ولا نقُل كلمة واحدة. لا تكشف عار

أبيك وأمِّك، كما تقول الشريعة (لا ١٨ : ٧). لا تشهّر ما يكون من الأفضل إذا نُسِيَ وتغطَّى بالصمت.

أما تستحي وأنت مجبول من التراب وتعود قريبًا إلى التراب أن تنتفخ كبرياء مثل فقّاعة ماء، وترتضي بنفسك وتكتفي؟ أما ترى حدَّي الحياة البشريّة، بدايتَها ونهايتها؟

تفتخر بشبابك. ولا ترى سوى زهرة العمر. تُسَرّ بمواردك التي ما بدأتَ بعدُ استغلالها: عزْمُ يديك، سرعة رجليك، شعرك النازل على الصدغين، زغب خدَّيك. وتلبس قميصًا أرجوانيًّا مع صدريَّة حرير تمثّل مشاهد الحرب والصيد أو سائر المواضيع الغنيَّة.

تفتخر بحذائك الأسود الململمَّع حيث تشعّ بكْلات أنيقة. هذا ما تأخذه بعين الاعتبار. ولكنَّك لا تنظر إلى ذاتك.

إلى المقبرة

٦ إذًا، سأريك، كما في مرآة، من أنت وكيف أنت مصنوع. أما نظرتَ يومًا في مقبرة أسرار طبيعتنا؟ أما رأيت يومًا العظام المكدَّسة، وكيف أنَّ جماجم بدون لحم تنظر إليك بمحاجر مجوَّفة ومكشّرة؟ هل رأيت الفم المكشِّر وسائر الأعضاء مبعثرة هنا وهناك؟ إن كنتَ رأيت هذا المشهد، فهل اكتشفت ذاتك؟

أين هي علامات الشباب المزدهر: وجنتاك الورديَّتان، سحر شفتيك، بهاء عينيك يرفعهما حاجباك؟ أنفُك الأنيق بين خدَّين

طريَّين؟ أين هو شعرك الحريريّ الذي كان يسقط على رقبتك، وحلقتا صدغيك؟

أين هما اليدان اللتان كانتا تُطلقان الرمح، والرِجلان اللتان تدفعان الفرس؟ أين الأرجوان والبصّ؟ أين المعطف والحزام والحذاءان؟ أين هو الجواد، أين هو السباق والحيويَّة المفرطة؟ أين هو ما يغذّي، الآن، العجرفة؟

قلْ لي أين تجد هنا ما يكوّن كبرياءك؟ وماذا نقول عن بطلان حلمك؟ أين تصوُّرات النائمين؟ أين الخيال الهارب الذي لا تقدر أن تمسكه، الشبيه بحلم الشباب الذي يتبخَّر حالما يُرسَم؟

هذا بالنسبة إلى الذين هم جهَّال في شبابهم لقلَّة النضوج، فما نقول عندئذٍ عن الذين أدركوا العمر الناضج وجمَّدتهم السِنون، ولكنَّ تصرُّفاتهم غير ثابتة وحيث يزداد عندهم مرض الكبرياء خطرًا، وهو مرض نستطيع أن ندعوه: الاعتداد.

كبرياء العظمة

إنَّ المركز الرفيع الذي يتضمَّن القوَّة يُنتج الكبرياء. فهي، في نوع من الأنواع، جزء من الوظيفة أو الباعث للذين يتوقون إليها. أو أيضًا الاعتبارات حول وظيفة هامَّة توقظ مرضًا اعتُبر مضى. وأيُّ كلام يستطيع أن يسكتهم، لأنَّ صوت المنادين الذين ينشدون ألقابهم أصاب آذانهم؟

من يستطيع أن يقنع أولئك الذين يمتلكون مثل هذه العقليَّة، وهم لا يتميَّزون أبدًا عن الذين يظهرون على المسرح بانتفاخ؟ فهؤلاء أيضًا يلعبون دورًا، بفنّ، فيرتدون الأرجوان المزيَّن بالذهب، وينطلقون في مَركبات رائعة، ومع ذلك لا يصيبهم مرض التشامخ، فيحفظون نفسهم متساوية لما كانت عليه قبل أن يصعدوا على المسرح، ويلبثون هم ذاتهم في داخلهم تحت فخامة دورهم، ولا يحزنون حين ينزلون من المركبة ويخلعون ثيابهم المزيَّنة.

أوهام الكبار

أمّا الذين يزهون في مركزهم الرفيع، على مسرح العالم، فينسَون ما حصل قبل وقتهم بقليل، وما سيحصل لهم بعد وقت قليل. ينتفخون مثل فقّاعات ماء، يرفعون عنقهم حين يُعلن قدومَهم صوتُ المنادي القويّ فيلعبون شخصيَّات (المسرح) ويحوّلون سمات وجههم الطبيعيَّة، ويعطون لذواتهم شكلاً مؤثّرًا هائلاً. ويتَّخذون صوتًا غليظًا متوحّشًا ليؤثّروا في الذين يسمعونهم، ويُرعبوهم.

هم لا يعرفون أن يقفوا في حدود الوضع البشريّ، بل استمدُّوا لنفوسهم قوَّة إلهيَّة وسلطة إلهيَّة. ويتخيَّلون أنَّهم أسياد الحياة والموت لأنَّ من بين الذين يتقدَّمون إلى منبرهم، هم يعفون عن البعض ويحكمون على الآخرين بالإعدام. فما عادوا يعرفون من هو سيّد الحياة، الذي يحدِّد بدايتها ونهايتها.

فلا شيء يستطيع أن يحطِّم هذه الكبرياء سوى التذكُّر بأنَّ عددًا كبيرًا من هؤلاء الموظّفين الكبار، في وسط عرْض عظمتهم، اقتُلعوا من عروشهم واقتيدوا إلى مدافنهم حيث رافقتهم مراثي المنادي.

٧ فمن يحسب نفسه سيِّدَ الحياة ساعة لا يسعه أن يتصرَّف بحياته الخاصَّة؟ فإن امتلك نفسَ فقير، يتطلَّع في ذاك الذي صار بإرادته فقيرًا لأجلنا، ويتأمَّل في كرامة متساوية لكلّ شخص بشريّ، فلا يسمح لنفسه في ممارسة سلطانه المأسويّ، أن يعامل بتشامخ واحتقار ذاك الذي يقاسمه وضعه، ولكنَّه، في الحقيقة، يحسب نفسه سعيدًا بأن يحتمل الذلَّ العابر في تبادل مع ملكوت السماوات.

أولئك الذين تركوا كلَّ شيء

لا يحيد عن نظرنا شكلٌ آخر من الفقر. قال الربّ: «بعْ كلَّ ما تملك وأعطه للمساكين. وتعالَ اتبعْني فيكون لك كنز في السماء» (مت ١٩: ٢١). فيبدو لي أنَّ هذا الفقر يوافق الفقر الذي يُقال عنه إنَّه مغبوط. قال تلميذ المعلّم: «انظر! نحن تركنا كلَّ شيء لنتبعك، فماذا يعود لنا؟» (آ٢٧). وما كان الجواب؟ طوبى للمساكين بالروح فإنَّهم يمتلكون ملكوت السماوات.

أتريد أن تعرف من هو الفقير بالروح؟ هو ذاك الذي يبادل براحة الجسد غنى النفس. من يمتلك روح الفقر؛ من يتحرَّر من الغنى كحِمْل

ثقيل ليرتفع وينطلق في طيرانه، كما يقول الرسول، ليُختطَف مع الله على سحب السماء (١ تس ٤: ١٦).

ثقيل هو الذهب وثقيل كلّ ما يعمل لكي يمنحنا الغنى. وخفيفة هي الفضيلة. فهي ترفعنا وترفعنا. فالثقل والخفّة يرفض الواحد الآخر. فلا يمكن لمن استثقلته المادّة أن يحسَّ بنفسه خفيفة.

فإذا أردنا أن نرتفع، لنتحرَّرْ ممّا يجتذبنا إلى أسفل لكي نستطيع الوصول إلى ذاك الذي هو في الأعالي. فالمزامير تعلّمنا كيف نصل إليه: «زرع ووزَّع على المساكين، فبرُّه يدوم من جيل إلى جيل» (مز ١١٢ : ٩).

فالذي يعيش في شركة مع الفقير يأخذ أيضًا جانب ذاك الذي صار فقيرًا من أجلنا. أخذ الربّ على عاتقه الفقر وما خاف منه، لأنَّ ذاك الذي صار فقيرًا لأجلنا هو ملكُ الخليقة كلِّها.

لأجلِ هذا، إن جعلت نفسك فقيرًا مع الفقراء، تملك مع الملوك. «طوبى للفقراء بالروح لأنَّ لهم ملكوت السماوات.» لتكن أهلاً لذلك في المسيح يسوع ربِّنا الذي له المجد والقدرة إلى دهر الدهور.

التطويبة الثانية

طوبى للودعاء

١ إنَّ أولئك الذين يصعدون سلَّمًا، حين يصعدون درجة يتّخذون الثانية. والثانية تقود إلى الثالثة، وهكذا دواليك. وحين يصعد الإنسان بشكل تدريجيّ يرتفع شيئًا فشيئًا. وفي النهاية يُدرك القمَّة.

العلاقة بين التطويبة الأولى والتطويبة الثانية

إلى أين يقودنا هذا الدخولُ في الموضوع؟ إنَّ درجات التطويبة تشبه درجات متنوّعة، كما يبدو لي، ومن السهل أن نعرض الصعود. والذي أدرك، روحيًّا، الدرجة الأولى في التطويبات، ففي منطق سليم، يسعى إلى الثانية. ولكنّ هذا الكلام، للوهلة الأولى، يرنُّ في آذاننا بشكل غريب. وقد يجد سامعٌ أنّه يستحيلُ أن ندرك، بعد ملكوت السماوات، ميراث الأرض. وهكذا يبدو أكثر منطقيًّا أن ينطلق الإنسان من الأرض إلى السماء. لأنَّ صعودنا ينطلق من الواحدة إلى الثانية.

ولكن إن رفعنا تفكيرنا حتَّى السماوات، نجد هناك الأرضَ التي

تُمنَح ميراثًا للذين عاشوا حياة فاضلة. وهكذا ما تبلبل ترتيبُ التطويبات حين وعَدنا الله أوّلاً بملكوت السماوات ثمَّ بالأرض.

وما يبدو، في نظرة أولى، أرضيًّا، هو في الواقع من ذات طبيعة الذي سبقه، بل ما يبدو – على مستوى المكان – أنَّ موضعه يتحدَّد فوق، هو عمليًّا أدنى من الجوهر الروحيّ. فالفكر لا يسعه أن يرتفع إلى هناك دون أن يبدأ العقلُ فيتجاوز المحسوس.

فإذا دلَّت الأرض على الميراث السامي، فهذا ينبغي ألاَّ يصدمك: فالكلمة الإلهيّ أراد أن يتنازل حتَّى دناءة ذهننا. فجاء إلينا، لأنَّنا لم نكن قادرين على الارتفاع إليه.

هو يمنحنا الأسرار الإلهيَّة بألفاظ وتسميات اعتدنا عليها في حياتنا كلَّ يوم. دعا في الوعد السابق «ملكوتًا»، سعادةَ السماء التي لا تُوصَف. وعاد إلى ما يُرى في ملكوت الأرض: التيجان حيث تشعّ الحجارة الكريمة، اللباس الأرجوانيّ الذي يبهر الحاضرين بتألُّقه، الأرومة، الأردية، العرش المرتفع الرفيع الذي حوله يقف المرافقون، وكلّ الغنى الذي يحيط على مسرح الحياة الحاضرة، بعظماء هذا العالم، الذين يسعون هكذا بأن يُنمّوا بهاء قدرتهم.

معنى الملكوت

يرسمُ أمامنا لفظُ الملكوت فكرة العظمة، التي تتجاوز كلَّ ما له لمعان في نظر البشر. هذا هو السبب الذي لأجله استعمل المسيح هذه

العبارة ليدلَّ على خيرات رفيعة. فلو وُجد شيء أعظم من الملكوت، لكان استعمله الربّ، بكلّ تأكيد، ليحرّك في قلب سامعيه الرغبة بسعادةٍ لا يعبَّر عنها.

كان من المستحيل أن يدلَّ بألفاظ خاصَّة على خيرات تتجاوز ذهننا ومعرفتنا. «ما لم تره عين ولم تسمع به أذن وما لم يخطر على قلب بشر» (١ كو ٢ : ٩؛ إش ٦٤ : ٣).

معنى أرض

إذا أردنا للتطويبة المذكورة أن لا تفلت كلُّها من فكرنا، كُشف لنا اللامُدرَك بشكل يتيح لفقر طبيعتنا أن تدركه. والمدلولان الاثنان للفظ «أرض» لا ينبغي أن يعيدا فكرنا من السماء إلى الأرض المادّيَّة، لأنَّ عرض التطويبات السابقة أصعدك وأتاح لك أن ترتفع حتَّى رجاء السماء: فاهتمَّ، إذًا، بالأرض، التي لا تُعطى ميراثًا للجميع، بل فقط للذين، بوداعة ممارسة خلال حياتهم، اعتُبروا أهلاً لهذا الوعد.

ويبدو لي أنَّ داود العظيم، بشهادة الكتاب المقدَّس، تميَّز بين جميع معاصريه بوداعته وطول أناته، فتحدَّث مسبَّقًا، بإلهام من الروح القدس، على هذا الوعد، وبالإيمان أدرك هذا الرجاء حين قال: «أرجو أن أرى حسنات الربّ في أرض الأحياء» (مز ٢٧ : ١٣).

ولا يبدو لي أنَّ النبيّ دلَّ بعبارة: «أرض الأحياء» على الأرض

التي تُنتج جميع المائتين، وتستعيد في حضنها كلَّ ما جاء منها. ولكنَّه يستشفُّ في «أرض الأحياء» تلك التي لا تعرف الموت، والتي ما داسها الخطأة يومًا وحيث لا يحقُّ للشرِّ أن يقيم، التي ما فلحها قطُّ زارعُ الزؤان، التي لا تُنتج الشوك والعوسج. هناك تتفجَّرُ عينُ الراحة، وهناك نجد موضع المرعى والنبع الذي يتوسَّع في أربعة أنهر (تك ٢ : ١٠)، حيث الله الخالق غرس كرمته (إش ٥)، وحيث نجد كلَّ الخيرات التي يصفها لنا الوحيُ بالصوَر.

حين نفكّر بهذه الأرض السامية التي هي فوق السماوات، والتي عليها تقوم مدينة الملك (الإلهيّ)، والتي عليها «تُتلى أخبار المجد» (مز ٨٧ : ٣)، كما يقول النبيّ، فتدرُّجُ مختلف التطويبات لن يفاجئنا. ولا يكون لائقًا أن نجعل الناس يرجون الحياة الحاضرة، أولئك الذين، كما يقول الرسول، «يُخطَفون في سحب السماء للقاء الربِّ في الهواء، وهكذا يكونون دومًا مع الربّ» (١ تس ٤ : ٧).

من هم الودعاء

٢ لنرَ لأيَّة فضيلة ستُعطى هذه الأرض أجرًا. «طوبى للودعاء لأنَّهم يرثون الأرض». فبمَ تقومُ هذه الوداعة؟ لماذا أعلن الكلمة الإلهيّ الوداعة مطوَّبة؟

لا يبدو لنا صحيحًا أن نفهم، بدون تمييز، تحت اسم هذه الفضيلة كلَّ ما يتمُّ بوداعة، إذا فهمنا بهذا اللفظ الدم البارد والبلادة.

فالراكض الرخو ليس أكثر وداعة من الذي سبقه. وفي مباراة، لا يربح المعركة ذاك الذي هو أكثر بطئًا. وحين نركض لقاء أجر وُعدَتْ به دعوتنا كمسيحيّين، يحثُّنا بولس على أن نعجّل: «اركضوا بحيث تنالون النصر» (١ كو ٩ : ٢٤). وهو نفسه كان يسير بقدم حارَّة فينسى ما هو وراءه، ويصارع والسلاح في يده، فيطلق السهم لا بطريق الصدفة وفي الفراغ، بل يصيب النقطة التي تُجرَح لدى عدوِّه، فيوجّه ضرباته على الجزء المعرَّض في الجسد.

أتريد أن تعرف أسلوب بولس في الصراع؟ انظر جراح الخصم (٢ كو ١١ : ٢٣). عُدَّ الضربات التي نالها هذا الخصم وتأمَّلْ جراح المهزومين.

وأنتَ لا تجهل أيّ خصم يقاتل في بدنه (لحمه ودمه) الذي يضربه، يجلده بالعفَّة، يميته بالجوع والعطش والبرد والعري (آ٢٧). ويطبع فيه سمات الربّ (غل ٦ : ١٧). يركض فيغلبه ويتجاوزه (١ كو ٩ : ٢٤) لئلاَّ يغطّي الظلام عينيه (رو ١١ : ١٠) حين يسبقه خصمه.

إذا كان بولس امتلك أسلوبًا حيًّا، سريعًا، خفيفًا، إذا كان داود أطال خطواته ليهاجم أعداءه (مز ١٨ : ٣٧)، إذا شُبّه حبيب نش ٢ : ٨ بالغزال الذي يقفز فوق الجبال ويطفر فوق التلال – ويمكن أن نورد عددًا كبيرًا من الأمثلة حيث العجلة تسبق البلادة – لماذا يمتدحُ المسيحُ الوداعة ويدعوها مطوَّبة وأهلاً للأجر؟

أعلن: «طوبى للودعاء فإنَّهم يرثون الأرض». هذه الأرض الخصبة

بالثمار العجيبة حيث نجد شجرة الحياة (رؤ ٢٢: ٣)، التي تسقيها ينابيع العطايا الروحيَّة، وحيث تنضج الكرمة الحقيقيَّة التي نعرف أنَّها مغروسة بيد الآب (يو ١٥: ١).

الوداعة الإنجيليَّة هي صعود

٣ بدا الكلمة الإلهيّ كأنَّه يشير إلى أنَّ منحدر الرذيلة زالق، وأنَّ طبيعتنا تميل باتّجاه الشرّ، بما أنَّ الأجساد تبقى جامدة ما دامت موجَّهة نحو العلاء. ولكن إن أُلقيَت من قمَّة الجبل فإنَّها تسقط بسرعة متزايدة بسبب وزنها، سقوطًا جنونيًّا بحيث يُفلت من أيّ وصف.

وسقوط جنونيّ مثل هذا هو أمر يحمل الخراب. أمّا الذي يأخذ الطريق المعاكسة فيُعتبَر هنا مغبَّطًا. تلك هي الوداعة التي تعارض عنف الانحدار بثباتٍ باردٍ ومتأنٍّ.

وكما أنَّ النار بطبيعتها ترسل لُهبها نحو العلاء ولا تتحرَّك في الاتّجاه الآخر، فالفضيلة، السريعة والقاطعة، تُحمَل دومًا نحو العلاء ولا تتحرَّك في الاتّجاه الآخر. فتحرُّكُ طبيعتنا محمول إلى أسفل بسبب ثقلها. ولهذا يعلنون أنَّ ما هو ثابتٌ هو مغبوط. فما هو فينا ساكن، يدلُّ على صعوده.

ومن الأفضل أن نلوّن كلامنا بأمثلة مستقاة من الحياة. فإرادة كلّ منّا هي اثنتان، فتأخذ، كما تشاء، اتّجاهين اثنين: اتّجاه الاعتدال، واتّجاه اللاعفَّة. ما نستطيع أن نقوله عن فضيلة أو عن رذيلة، ينطبق

على كلِّ القيم الأخلاقيَّة. فالطبيعة البشريَّة تختار، بأيِّ حال، بين اتّجاهين متعاكسين: الغضب أو الوداعة، الكبرياء أو التواضع. الحسد أو اللطف، البغض أو الطيبة التي ترشح بالسخاء والسلام.

فكما أنَّ الحياة البشريَّة تتضمَّن عنصرًا جسميًّا فيه تجد الأهواء جذورها، وأنَّ كلَّ هوًى يتوق بقوَّة لا تقاوَم إلى تهدئة الإرادة (فالمادَّة وزنُها ثقيل)، لا يعلن الربُّ مطوَّبين أولئك الذين حياتهم بمنأًى عن الأهواء، لأنَّه يستحيل في وجود أرضيّ أن يتحرَّر الإنسان كلّيًّا من الحواسّ ومن الأهواء. والمسيح يدعو وداعةً شكل الفضيلة الذي نقدر أن ندركه خلال حياتنا المائتة، ويؤكّد أنَّ الوداعة تكفي للوصول إلى الطوبى. فلا يفرض عدم التألُّم التامّ: فالمشترع الآثم وحده يقدر أن يطلب من الطبيعة البشريَّة ما لا قِبَل لها به.

هكذا يكون تقريبًا كما لو أنَّنا طلبنا من الأسماك أن تعيش في الهواء، أو عكس ذلك، أن تعيش الطيور في الماء. فينبغي على الناموس أن يتكيَّف واستعدادات الطبيعة. فالتطويبة تفرض الاعتدال والوداعة، لا غياب الأهواء غيابًا كلّيًّا، فهذا يستحيل على الطبيعة ساعة يمكن ممارسة هاتين الفضيلتين.

إذا كانت التطويبة ترفض كلّيًّا كلَّ غوًى وكلَّ رغبة، فالبركة تكون بلا فائدة ولا استعمال. فأيُّ كائن من لحم ودم يسعه أن يدركها؟ فالربُّ لا يشجب أولئك الذين يسقطون عرَضًا في الهوى، بل ذاك الذي يعمل للأهواء ويرضيها بملء حرّيَّته.

السيطرة على الأهواء وتوجيهها

من الطبيعيّ لضعفنا أن نرى فيه خروج اندفاعات ضدَّ إرادتنا. ولكن ينبغي ألاّ يجرفنا الهوى مثل سيل مندفع: ينبغي أن نقاومه بشجاعة ونبعده بعقلنا. تلك هي مهمَّة الفضيلة.

٤ طوبى للذين لا يتراجعون بسهولة أمام اندفاعات الهوى، بل يعرفون أن يسودوها بالعقل. فالعقل يعمل مثل رسن حصان: يسيطر على تحرّكات الهوى ويحمي النفس من انحرافاتها.

مَثَلُ الغضب

ويسهل علينا حين نحلّل فوضى الغضب، أن نفهم أنَّ الوداعة مطوَّبة. كلمة في غير مكانها. عمل أو، بكلّ بساطة، افتراض يحرّك هذا المرض، فيجعل الدم يدور ويحوّل القلب. ونستطيع أن نرى، كما في الميتولوجيا، أنَّ شراب المحبَّة يُنتج التحوّل إلى حيوانات: هنا الغضب يحوّل الإنسان إلى خنزير، إلى كلب، إلى أيّ حيوان آخر. تمتلئ العين بالدم، وينتصب الشعر على الرأس، ويصبح الصوت أجشّ، والكلام عديم التهذيب، واللسان يصبح مجمَّدًا وغير قادر أن يعبّر عن عواطف تبلبل قلبه، والشفتان لا تعودان تتكلَّمان بشكل مفهوم فلا تعودان تتسلَّطان على اللعاب، بل تتكلَّمان مثل الموج وترسلان «رشاشًا». وكذلك اليدان والرجلان والجسد كلّه الذي يحرّكه الهوى.

إن كان رجلان، ورجل واحد يتصرَّف هكذا، أمّا الآخر فيحاول

أن يهدّئ المرض ببراهين عقليَّة، بعين صافية وصوت هادئ، مثل طبيب يعاون بفنّه شخصًا يتخبَّط في نوبة جنون، أما ترى أنت نفسك حين تقابل بين الاثنين أنَّ واحدًا يستحقُّ الشفقة والقرف لأنَّه استسلم إلى غرائز البهائم. أمّا الوديع فيستحقُّ أن يُدعى مطوَّبًا، لأنَّه حافظ على هدوئه مقابل شرّ قريبه.

من الواضح أنَّ الكلمة الإلهيّ أشار هنا إلى هذا الهوى (هوى الغضب) لأنَّ الوداعة ترافق التواضع. فالاثنان مرتبطان: التواضع هو أمّ وداعة القلب. فإن أغلقتَ الباب على الكبرياء، لا يجد الغضب مدخلاً له. فالبهيميَّة والعار يحرّكان هذا المرض لدى أهل العنف. أمّا العار فلا يصل إلى من يمارس التواضع.

وما هو الدواء؟

إنَّ الذي يطهِّر عقله من جميع الأوهام البشريَّة، ويعي الأصلَ التعيس لوضعنا، وإلى أيِّ نهاية يتوجَّه وجودُنا العابر والزائل، ونجاساتِ جسمنا وفقْرَ طبيعتنا العاجزة عن السهر على القيام بأودنا دون العودة إلى لحم الحيوان. ولا ننسَ الآلام والمحن والحوادث ومختلف الأمراض التي يتعرَّض لها جميع البشر والتي لا تعفو عن أحد: من ينظر إلى كلِّ هذا بنظرة تطهِّر القلب، لن يتزعزع بسهولة إن كانت لا تحيط به اعتبارات واعتبارات.

وعكس ذلك، نظنُّ أنَّ علامات التقدير من الآخرين، تأتي من

خطإ، لأنَّنا في طبعنا لسنا بشيء يستطيع أن يجذب إلينا مديح الناس خارج نفسنا التي مجدها يُفلت ممّا يستطيع العالم أن يقدِّم لنا. فكلُّ ما يصنع مجد الناس: الغنى، النسل، الشهرة، الشعور بالتفوُّق، يأخذ المجد عن النفس ويهيّئ عارها. فكلُّ إنسان واعٍ ومتميّز يسهر بحيث لا ينجّس نقاوة نفسه.

مثلُ هذا الاستعداد لا يعني شيئًا آخر سوى العيش، بعمقٍ، تواضعَ القلب. والذين تجذَّروا في هذه الخبرة لا يقدّمون في نفسهم أيَّ انفتاح على الغضب.

وحين يُطرَد الغضب، تعرف الحياةُ الراحة والسلام اللذين ليسا شيئًا آخر سوى الوداعة التي نهايتها التطويبة وميراث السماوات، في المسيح يسوع الذي له المجد والقدرة إلى دهر الدهور. آمين.

التطويبة الثالثة

طوبى للباكين

١ ما وصلنا بعدُ إلى قمَّة الجبل، فنحن ما زلنا في تأمُّلنا عند سفوحه، وإن عبرنا حتَّى الآن بعض الممرَّات وبلغنا إلى الفقر المغبوط، ووصلنا إلى الوداعة فارتفعنا أيضًا.

من هذه التلال، يقودنا كلمةُ الله إلى أعلى ويرينا، مباشرة، وسط التطويبات، ارتفاعًا ثالثًا نستطيع البلوغ إليه، حين نزيل كلَّ عائق ونحرّك سلاسل الخطيئة، بحسب كلام الرسول (عب ١٢ : ١) لنصل بسهولة وشجاعة إلى القمَّة، ونقترب من نور الحقّ (آ٢٢).

أولئك الباكون

يقول الربّ: «طوبى للباكين لأنَّهم يُعزَّون». فالذي تشرَّب روح العالم يستطيع أن يضحك ويهزأ بالكلمة الإلهيّ، فيقول: إن دعا مطوَّبين أولئك الذين تُثقلهم الشقاوات، فالويل للذين ليسوا تعساء!»

ويَضحك أيضًا أكثر حين يحدّد مختلف فئات الشقاوات. محن

الأرامل ومحن اليتامى، خسارة الثروة، الغرق، الأسر في الحرب، حكم المحكمة القاسي، المنفى والحجز والطلاق، ونتائج الأمراض مثل العمى أو بتر الأعضاء أو عاهات الجسد. وإذا محنة أخرى ضربت الناس في حياتهم الجسميَّة أو الروحيَّة، يعدِّدها المتكلّم كلَّها ليبرهن على بلادة الكلام الإنجيليّ الذي يقول: «ما أسعد الذين يبكون!»

لا نسمحْ أن ننغشّ عبر الذين ينظرون إلى حقائق الله بعقل فظّ وجبان. لنبحث بحسب إمكاننا لكي نكتشف الغنى الذي يختبئ في هذا الكلام لنقيس المسافة التي تفصل بين الاعتبارات البشريَّة والأرضيَّة وتلك التي هي رفيعة وسامية.

نبكي خطايانا

٢ بدرجة أولى نستطيع أن نعتبر أولئك الذين يبكون ضلالاتهم وخطاياهم، سعداء، بحسب تعليم القدّيس بولس الذي يؤكّد أن لا وجود لنوع واحد من الحزن، بل لنوعين: حزنٌ بحسب العالم وحزن بحسب الله. الأوَّل يُنتج الموت والثاني يحمل الخلاص (٢ كو ٧: ١٠).

فكيف لا ندعو استعدادَ قلبٍ مثل هذا مطوَّبًا، حين يرى الشرَّ ويبكي حياة خاطئة. ففي عضو منخور على أثر حادث، يكون الشلل علامة جسد في طريق الموت. فإن توصَّل فنُّ الطبيب أن يعيد الإحساسَ إلى هذا العضو، يفرح المريض والطبيب معًا، ولو كان الإحساس إحساس وجع لأنَّنا في وسعنا أن نستشفَّ الشفاء.

كتب الرسول إلى الكورنثيّين: إنَّ بعضًا منهم أضحَوا بلا إحساس وتمرَّغوا في حياة خاطئة. فهؤلاء يتصرَّفون، بالنسبة إلى الفضيلة، مثل جثث لا حياة فيها، وما عادوا يعون ما يعملون.

فإن أصابتهم كلمةٌ خلاصيَّة مثل دواء يشفي ويُحرق – أفكّر في تهديدات الدينونة – ينقلب قلبُهم بالخوف الذي ينتظرهم: الرعدة من جهنَّم، النار التي لا تنطفئ، الدود القارض، صرير الأسنان، البكاء الذي لا نهاية له، الظلمة البرَّانيَّة –كلُّ هذه العلاجات المحرِقة والمرَّة المستعملة، إن هي أعادت الحياة لمن هو مجمَّد في أهواء الرذيلة وجعلته يعي حياته الماضية، تستطيع أن تجعله سعيدًا حين تُدخل في النفس سبب الألم.

وعاقب بولس ذاك الذي، في انحرافه، نجَّس فراش أبيه. ما دام يُظهر نفسه غير معنيّ بما يتعلَّق بذنبه. وحين يبدأ علاج القصاص عمله، يأتي ليعزّيه لأنَّ وجعه أعاد إليه الطوبى، لئلاَّ «يغرق في حزن مفرط» (٢ كو ٢: ٧)، كما قال الرسول. مثل هذا المثل الذي يجعلنا في التطويبة، لا يبدو بلا فائدة ليعدَّ الإنسان لحياة فاضلة لأنَّ الخطيئة تفيض في حياة البشر. والدواء هو دموع التوبة.

العزاء الآتي

٣ ولكن يبدو لي أنَّ كلمة الله يريد أن يعطينا علمًا أعمق أيضًا،

حين كلَّمنا عن هذا الحزن الذي يدوم. فلو أراد أن لا يتكلَّم إلاَّ على الندامة على الخطايا، لكان قال: طوبى للذين بكوا (في الماضي) لا «الذين يبكون» (الآن وفيما بعد). وكأنَّنا نقول: ما أسعد الذين كانوا مرضى لا الذين هم مرضى. فمواصلة العلاج تبرهن أنَّ المرض يدوم.

ولسبب آخر يبدو لي مهمًّا أن لا نحصر التطويبة في الذين يبكون خطاياهم. نحن نعرف أناسًا كثيرين يعيشون حياة لا لوم فيها، ويؤدّي الله ذاته شهادة تامَّة على سلوكهم الصالح. من يتَّهم يوحنّا بالبخل؟ وإيليًّا بعبادة الأوثان؟ هل يورد التاريخ عنهما أيَّة خطيئة أو حتَّى جهالة صغيرة؟ إذًا ماذا؟

هل يريد الكلمة الإلهيّ أن يستبعدهما من الغبطة لأنَّهما ما بدأا يكونان مريضين، وبالتالي لم يكن لهما أن يلجأا إلى العلاج، أي الوجع والندامة؟ أما يكون من العبث أن نبعدهما من التطويبة لأنَّهما لم يخطأا ولا شفيا ذنوبهما في التوبة؟ عندئذٍ، أما يكون من الأفضل أن نخطأ من أن نكون بلا لوم، إذا كانت نعمة المعزّي (الإلهيّ) لا تُمنح إلاَّ إلى الذين يبكون ذنوبهم؟

«طوبى للذين يبكون لأنَّهم يُعزَّون». لنتبع – حسب كلام حبقوق النبيّ – آثار ذاك الذي يجعلنا «نمشي على الأعالي» (حب ٣: ١٩)، ولنبحث عن المعنى الخفيّ لهذه الأقوال فندرك إلى أيِّ حزن هي موعودةٌ تعزيةُ الروح القدس.

سبب الدموع

نبدأ فنرى ما هو الغمّ وما هو سبب الدموع. من الواضح للجميع، أنَّ الغمَّ هو حزن النفس، الذي يسبّبه حرمان من خير هو ثمين. فلا وجودَ للغمّ لدى الذين حياتهم ليست إلاَّ فرحًا.

ها إنسان ينعم بالثروة. كلُّ شيء ينجح له: يعيش في تناسق مع زوجته، وأولاده لا يحملون إليه سوى الرضى. يحميه إخوته الذين يشاركونه. هو معتبر في المجتمعات، مكرَّم لدى العظماء، مرعبٌ للأعداء، في متناول أصدقائه. يشعُّ بالرفاه، ويسبح بالملذّات دون أيِّ همّ. صحَّته قويَّة جدًّا. وهو يملك كلَّ ما يمكن لإنسان أن يرغب فيه على الأرض. مثل هذا الإنسان يلتذُّ بكلّ ما يملك.

ولكن إن تبدَّل الحظّ وحرمه حادثٌ أو انفصال عن أفضل أصدقائه، إن تحمَّل أضرارًا هامَّة، وإن خسَّره المرض تكوينه القويّ، فالحرمان ممَّا كان يصنع فرحه يحرّك العاطفة المعاكسة، التي ندعوها الحزن. إذًا، التحديد الذي قدَّمناه هو صحيح: الغمّ هو الحزن لأنَّنا خسرنا خيرًا كان عزيزًا علينا.

إذا فهمنا ما هو الغمّ البشريّ، فما هو معروف يقدر أن يضيء على ما هو لا معروف – ممّا يتيحُ لنا أن نعلم أيَّ حزن يُدعى مطوَّبًا ويستحقُّ أن يُعزَّى. فإذا كانت، على الأرض، خسارة الخيرات تحرّك الغمَّ وإذا ما كان إنسانٌ يبغي سعادة مجهولة، ينبغي علينا أن نعرف ما هو الخير

وما الذي يكوّنه في الحقيقة، ونبدأ في استكشاف الطبيعة البشريَّة. عندئذٍ يمكننا أن نكتشف أيَّ حزن يُدعى مطوَّبًا.

بين أعميين اثنين، واحد وُلد بهذه الإعاقة، والآخر رأى النور ولكنَّه خسرَ النظر في حادثٍ مؤسف. فالحظّ لم يجعلهما يتألَّمان بالشكل عينه. فالذي عرف ما ينقصه، يتألَّم لأنَّه يرى نفسه محرومًا من النظر. والآخر الذي لم يعرف يومًا مثل هذا الخير حتَّى اليوم، يحيا حياته دون أن يغتمّ. فبما أنّه عاش دومًا في الظلمة، لا يتخيَّل أنَّه حُرم من خير ما.

الأوَّل يتوق باندفاع ويجمع الوسائل ليستعيد خيرَ النور لينال ما يعرف نفسه قد حُرم منه بشكل قاسٍ. والثاني يحيا في الليل حتَّى الشيخوخة، وبما أنَّه لم يعرف النور يعتبر أنَّ حاله هي خير.

ونقول الشيء عينه عن الذي فهمَ ما هي الخيرات الحقيقيَّة، وفي الوقت عينه فهم شقاءه: هو يعتبر نفسه تعيسًا ويكون في الحزن لأنَّه خسر الآن هذا الخير.

فالكلمة الإلهيّ لا يدعو الدموع مغبوطة، لكن معرفة الخير ووداعة ذاك الذي يعرف نفسه وقد حُرم ممّا يبحث عنه.

ماذا نطلب، من نطلب؟

٤ لنبحث إذًا عن هذا النور الذي لا تستضيء به مغارة حياتنا الحاضرة. فقد تتوق رغبتُنا إلى ما لا يَتحقَّق وإلى ما لا يُدرَك. فأيّ

مصدر تفكير نمتلك لنستكشف طبيعة ما نبحث عنه؟ أيُّ لفظ، أيُّ لغة تقدِّم لنا تصوُّرًا يلائم النور الذي هو فوقنا؟ كيف نسمّي ما لا نستطيع أن نراه؟ وكيف نعبّر عمَّا لا مادَّة فيه؟ كيف نجعل الناس يرَون ما يهرب من النظر؟ وكيف نحيط ذاك الذي لا قياسات له أو قوام جسديّ؟

ما هو بدون شكل، ما يفلت من الزمان والمدى، ما لا نهاية له والذي يفيض دومًا فوق حدود كلِ تمثّل نتمثّله، والذي عملُه هو الحياة وجوهر كلّ ما نضمّ في اسم الخير، الذي فيه نشاهد نحن كلَّ ما يرفعنا، كلّ ما هو كبير: الألوهة، الملكوت، القدرة، الأبديَّة، اللافساد، الفرح، البهجة، وكلّ ما نستطيع أن نفكّر أنَّه كبير ونتكلَّم عنه.

فكيف وبأيّ اعتبار نجعل تحت عيوننا هذا الخير الذي يرانا ولا يُرى، الذي يُعطي الكيان لكلّ شيء ولكنَّه موجود دائمًا بذاته دون أيَّة حاجة بأن يصير؟

٥ فإذا أردنا أن لا نُتعب نفوسنا عبثًا فنكرّس كلامنا إلى ما لا يُدرَك، لا نحاول أن نستكشف مدَّة أطول طبيعة الخيرات السامية، لأنَّه يصعب علينا أن نفهمها. فنكون ربحْنا على الأقلّ أنه إن كان يستحيل علينا أن ندرك ما نبحث عنه، فنمتلك على الأقلّ فكرة عن عظمة ما نبحث عنه. فبقدر ما نعي أنَّ الخير، بطبيعته، يُفلت من بحثنا، بقدر ذلك نحزن، لأنَّ الخير الذي نحن محرومون منه هو كبير جدًّا بطبيعته، فتُفلت منَّا معرفتُه ذاتها.

الخير الذي خسرنا

هذا الخير الذي يتجاوز ذهننا، سبق وامتلكناه، وكان كبيرًا جدًّا فينا، بحيث إنَّ البشريَّة التي هي نسخة عن النموذج الإلهيّ، تبدو وكأنَّها نالت تشويهًا. فما نفترضه على ذلك الآن، كان موجودًا أيضًا لدى الإنسان، مع اللافساد والغبطة: سيادة واستقلاليَّة، غياب الألم والجهد، حياة حميمة مع الألوهة، وفرح النظر لدى فكرٍ فطنٍ يدرك كلَّ شيء بلا حجاب.

كلُّ هذا عُرض علينا في ألفاظ قليلة في خبر الخلق حيث قيل: خُلق الإنسان على شبه اللّه، وعاش في الفردوس، وذاق فيه وتلذَّذ بثماره. وثمرة الأشجار كانت: الحياة، المعرفة، وكلّ أنواع الخير.

فإن كنَّا امتلكنا كلَّ هذا، فكيف لا نبكي على شقائنا، حين نقابل بهذه الغبطة شقاء حياتنا الحاضرة؟ سقطْنا من أعلى إلى أسفل أسفل. وصورة ما كان سماويًّا صار أرضًا، الربُّ غدا عبدًا، وما كان خُلق للخلود حُكم عليه بالموت، ومن عرف لذّات الفردوس حُكم عليه بأن يكون في منطقة سيّئة ومعادية، فاتَّخذ حياة عطيبة ومملوءة بالمحن. ومن كان سائدًا ومستقلاًّ، ثقُلَت عليه الشرور الكثيرة بحيث يصعب عليه أن يحصي كلَّ هؤلاء الطغاة.

كلُّ هوًى من أهوائنا يأمر علينا، حين يسود كمتسلّط على الذين جعلهم في العبوديَّة. فيشبه طاغيًا احتلَّ في هجمة واحدة قلعة نفسنا، حينئذٍ تسيءُ إلينا بواسطة عبيده الذين يسودهم فيستعمل أفكارنا

بقساوة بحسب ما يشاء. هكذا، الغضب، الخوف، الجبانة، الاعتداد، الوجع والشهوة، البغض، المنازعات، القساوة، الحسد، التملُّق، الانتقام، التكاسل، وكلّ الأهواء التي فينا تتصارع بعضها مع البعض الآخر: كلُّها أسياد وطغاة تُخضع النفس وتعاملها كسجينة.

فمن يذكر محن الجسد التي هي جزء من وضعنا، والأمراض الكثيرة التي لم تعرفها البشريَّة في البدء، يذرف أيضًا دموعًا أكثر حين يقابل بين السعادة والألم، بين الشرور والخيور.

٦ والتعليم الخفيّ لذلك الذي يُعلن الحزن سعادة، يريد أن يشجّع النفس لتبحث عن الخير الحقيقيّ ولا تترك حالها تضلّ بأوهام الحياة الحاضرة. فالذي نظره دقيقٌ إلى الوضع، لا يسعه أن يعيش بلا دموع. مثلُ هذا يُسرّ بملذّات هذه الحياة، لا يعرف ما هو الحزن فيشبه الحيوانات غير العاقلة – فأيّ شيء أكثر تعاسة من أن نُحرَم من العقل؟ – فهؤلاء لا يُحسُّون إحساسًا بالشقاء: تجري حياتهم مع مسرَّاتها. الجواد لا يُضبط، والثور عدوانيّ. والخنزير ينتصب شعره، والكلاب الصغيرة تلعب. والعجول تقفز، ولكلّ حيوان طريقته بالتعبير عن فرحه. فلو كان لها عقل لما أمضت حياتها البليدة والتعيسة في الفرح.

ونقول الشيء عينه عن الناس الذين لا يعرفون الخيرات التي حُرمنا منها. فيقضون حياتهم في الملذّات. والرضى عن نفوسهم يمنعهم أن يرجوا الأفضل. فمن لا يبحث لا يجد هذا الذي يكتشفه فقط من

يبحث عنه. لهذا يدعو الكلمة الإلهيّ الحزن مطوَّبًا، لا لأنَّه كذلك في ذاته، ولكن بما يفجِّر فينا. والسياق يبيّن لنا أنَّ الحزن يتفتَّح في غبطة، في العزاء الذي نحصل عليه.

قال: «طوبى للذين يبكون». ولا يتوقَّف يسوع هنا، بل يواصل: «لأنَّهم يُعزَّون».

فموسى الكبير - أو بشكل أدقّ، الكلمة (الإلهيّ) - سبق له وعرف الأمر بروح النبوءة، في فرائض الفصح السرّيَّة. فأمرَهم بأن يأخذوا خبزًا بلا فطير للعيد، وأن يتبّلوا الطعام بالأعشاب المرَّة (خر ١٢ : ٨). يُستنتج من هذه الصور أنَّنا لا نستطيع أن نشارك في العيد السرّيّ إن لم نمزج الأعشاب المرَّة في هذه الحياة الحاضرة، بحياة بسيطة وبدون خمير (الخطيئة).

وداود الكبير، في ذروة مجده ومُلكه، تبلَّلت حياته بالأعشاب المرَّة. فتأوَّه وبكى خلال حياة امتدّتْ وامتدّتْ، فرغب بأمور أفضل. قال: «ويل لي لأنَّ منفاي يمتدّ» (مز ١٢٠ : ٥). وفي موضع آخر شاهد بعينين مندهشتين، جمال المنازل المقدَّسة وأحسَّ أنَّ الرغبة تُعييه، فقال: «الموضع الأخير في بيت الربّ ولا الأوَّل في بيوت الأرض» (مز ٨٤: ١١).

إذا أراد أحدٌ أن يدرك بدقَّة طبيعة الغمّ الذي يَحمل التطويبة، ليتأمَّلْ مثَل لعازر والغنيّ حيث التعليم واضح. قال إبراهيم للغنيّ: «اذكر أنَّك نلت خيراتك خلال حياتك، كما نال لعازر بلاياه. فهو

يجد هنا التعزية وأنتَ الألم» (لو ١٦ : ٢٥). وهذا عدل: فغياب التفكير أو بالأحرى حساب رديء أبعدَ الغنيّ من تدبير اللطف الإلهيّ من أجل البشر.

فالله أعطانا أن نتذوَّق الخير المنقَّى من كلِّ شرّ، ومنعَنا أن نمزجه مع الشرّ. لهذا، لأنَّنا أُشبعنا بشراهة من العكس، أي من العصيان لكلام الله، نختبر اختبارًا مضاعفًا، اختبار الغمّ واختبار الفرح.

هناك عالمان وكلّ منهما يقدّم شكلين من الحياة. وهناك أيضًا فرحان: فرح هذا العالم وفرح العالم الآتي حيث تتجذَّر آمالنا. مطوَّب هو ذاك الذي يراهن على الخيرات الحقيقيَّة الموضوعة في الأبديَّة حين يقبل حزن الحياة الحاضرة والعابرة ويعرف أن يحرم نفسه من أفراح الوجود وملذّاته، بانتظار الخيرات السامية.

فتقوم التطويبة بأن ننال، أبعد من الزمن، سعادة تدوم. وبانتظار ذلك ينبغي أن نقبل بالألم. وليس من الصعب أن نعرف لماذا دعا هذا النصُّ المتألّمين سعداء. ونحن نستقي التعزية في مشاركة مع المعزّي (الإلهيّ). فالتعزية هي عطيَّة الروح القدس التي تُوهَب لنا بنعمة ربِّنا يسوع المسيح الذي له المجد إلى أبديَّة الأبديَّات. آمين.

التطويبة الرابعة

طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ

١ إذا صدَّقْنا أولئك الخبراء في الطبّ، فالأشخاص الذين يتألَّمون من المعدة ولا يُحسُّون بالجوع، يشعرون دومًا بأنَّهم شباع ومتخمون بسبب الخلوط والإفرازات الرديئة التي ترجع إلى معدتهم. فليس لهم سوى القرف بطعام لا بدَّ منه. فقد زال جوعهم بسبب شبع غاشّ.

فإن وجد الطبيب دواءً ناجعًا وسقى المريض شرابًا خلاصيًّا، تتفرَّغ المعدة من الخلوط، والجسم الذي لا يعود مبلبلاً، يستعيد تذوُّق الطعام الذي لا غنى عنه. وهذا علامة الصحَّة أن نتَّكئ إلى المائدة، لا تلبية لحاجة، بل جوعًا ولذّة.

لماذا هذا المطلع؟ لأنّ الكلمة الإلهيّ الذي تدرَّج بشكل منهجيّ، يقودنا بأيدينا نحو الدرجات الأعلى في سلّم التطويبات، «فيرتّب في قلوبنا صعودات عجيبة» بحسب كلام النبيّ (مز ٨٤: ٦). وهكذا يجعلنا نسير في طرق وعرة، وهو يدلُّنا الآن على الطريق الرابعة: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنَّهم يُشبعون».

جوع الجسد وجوع النفس

أظنُّ أنَّه من الخير، وبعد أن تحرَّرت النفس من الملء الكثير والشبع، أن نوسِع في قلوبنا الرغبة المغبوطة لمثل هذا الطعام، لمثل هذا الشراب. فالإنسان لا يقاوم الجوع من دون أن تُسند قواه تعزيةٌ كافية، بدون أن يغتذي، بدون جوع. بما أنَّ القوَّة هي خير، فلنحتفظ بها حين نشبع بشكل طبيعيّ، بحيث ننال الكفاية حين نأكل، فنأكل جوعًا. فالجوع هو أمر ممتاز وهو ينبوع القوَّة التي فينا ومولّدها.

بالنسبة إلى الطعام، لا يمتلك جميع الناس الأذواق عينها. واحد يحبُّ الحلويات، وآخر الأطعمة المبهَّرة، وثالث يقدّر المالح ورابع ما فيه الحرّ. هذه الأذواق المختلفة لا توافق دومًا ما تطلبه الصحَّة. هذا يمتلك استعدادًا مسبَّقًا لمرض حين يأكل (فإنّ اتَّخذ ما يوافقه، يحافظ على صحَّته، وطعامه يؤمّن له ملء العافية).

ونقول الشيء عينه عن طعام النفس: لا يمتلك الجميع ذات الأمنيّات. البعض يرغبون في المجد، في الغنى، أو في بعض باطل العالم. وآخرون ينصبُّون على ملذّات المائدة. وفئة ثالثة تحافظ على البغض وتغتذي منه مثل طعام قاتل. كذلك هناك من يتوق إلى ما يوافق الطبيعة. والحال أنَّ ما هو خير بحسب الطبيعة هو دومًا كذلك بالنسبة إلى الجميع. وهو دومًا كذلك لا لسبب غريب بل في ذاته وهو دومًا شبيه بذاته فلا شبع يستطيع أن يضعفه. لهذا ندعو مطوَّبين لا فقط الجائعين بل أيضًا أولئك الذين يرغبون في البرِّ الحقيقيّ.

ما هو البرّ؟

٢ فما هو هذا البرّ؟ هذا ما ينبغي أن نحدِّده، كما أظنّ، لكي يوقظ فينا وحيُ جماله النيّر الرغبة في البهاء المكتشَف. فلا يمكن أن نرغب في ما لا نعرف. ونُظهر طبيعتنا متكاسلة وجامدة بالنسبة إلى ما نجهل، إلاَّ إذا كوَّنت عنه فكرة، بعد أن سمعت من يتكلَّم عنه أو لأنَّها استشفَّته.

فعددٌ كبيرٌ من الذين درسوا هذه المسائل يقولون إنَّ البرَّ يقوم في توزيع متساوٍ مع استحقاقات كلٍّ واحد. فإذا كان أحد مكلَّفًا بتوزيع المال، يقال إنَّه عادل حين يطلب المساواة فيقابل العطاء بحاجات الذين ينعمون به. وكذلك القاضي الذي يطلق الحكم بدون محاباة ولا بغض، بل يأخذ في الحسبان حالة الوقائع، فيعاقب الذين يستحقُّون العقاب أو يعفو عن البريء، وفي كلِّ خصام يعلن حكمًا عادلاً، فهذا يُدعى بارًّا، عادلاً.

والأمر عينه يطبَّق على مَن يحدِّد الضرائب بالنسبة إلى المواطنين: فيفرض مشاركة بحسب الموارد. وكذلك ربّ البيت وعمدةُ مدينة وملك البلاد الذي يمارس سلطته كما يجب بالنسبة إلى المواطنين، لا تجتذبه تصرُّفات جائرة، ولا يستغلّ وضعه إن حسب باستقامة من هو خاضع له، ولا يخيّب أولئك المرتبطين به: كلُّ هذا يشكّل العدالة في نظر البشر. هكذا يتصوَّرون البارّ، العادل.

بالنسبة إليَّ، إن رفعتُ عينيّ إلى أعالي الشريعة الإلهيَّة، أظنُّ أنَّ

البرَّ له معنًى أوسع ممّا سبق وقيل. فإذا توجَّهت كلمة الخلاص إلى كلِّ إنسان، وإن لم يحتلَّ الجميع الأوضاع المعدَّدة أعلاه، لن يحصل سوى إلى عدد قليل أن يكون ملكًا، عمدة، قاضيًا، أو أن يتصرَّف بالغنى أو أن يكون على رأس إدارة، بينما يصطفّ مجملُ الناس وسط المواطنين والرعايا، فكيف نقبل أن لا تكون العدالةُ الحقيقيَّة تحقَّقت بواسطة الطبيعة وتكون هي هي للجميعِ؟ فإن كان هدف العدالة هو المساواة، فلا يمكن أن نعتبر قاعدةً، التحديدَ المعطى للعدالة. وهذا ما تكذّبه حالاً اللامساواة التي تسود في كلِّ مكان.

البرُّ الإنجيليّ

إذًا، ما هو البرّ الذي يعني جميع الناس؟ هو ذاك الذي يقدر كلّ إنسان أن يرغبه حين يوجّه ناظريه نحو مائدة الإنجيل: الغنيّ أو الفقير، الخادم أو السيّد، الشريف أو العبد. فما من وضع يُنمي العدالة الحقَّة أو يخفِّفها. فإن كنّا لا نجدُها إلاّ عند الأغنياء والأقوياء فكيف يكون بارًّا شخصٌ مثل لعازر (لو ١٦: ١٩-٣١) النائم عند مدخل بيت الغنيّ، وهو لا يمتلك شيئًا من الذي يقرّبه من مثل هذه العدالة، ولا يعطيه السلطة أو الغنى أو البيت أو المائدة أو أيًّا من الغنى المادّيّ الذي يتيح له أن يمارس هذه العدالة.

فإذا أتاحت السلطة التوزيع أو إدارة الخيرات وحدها أن تمارس العدالة، فذاك الذي لا يمتلك شيئًا من كلِّ هذا يستبعد عنها. فلماذا يُعتَبر مستحقًّا بأن ينجو من شروره ذاك الذي لا يملك شيئًا ممّا يميّز العدالة، بحسب الرأي المعروف؟

فينبغي علينا أن نبحث: أيّ برّ ذاك الذي يهدأ جوعُه بالوعد: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنَّهم يُشبعون».

٣ متنوّعة ومختلفة هي الأغراض التي تتقدَّم إلينا وتمارس اجتذابًا على طبيعتنا. فنحتاج إلى الكثير من التمييز لنفصل الأطعمة التي هي مفيدة عن تلك التي هي مضرَّة لنا. فنتجنَّب أن نأخذ طعامًا ما لنفسنا يحمل إليها الموت والدمار بدلاً من أن يهبها الحياة.

جوع يسوع

ونستطيع ربَّما أن نضيء على معنى هذه التطويبة بمساعدة مقطع آخر من الإنجيل. فذاك الذي قاسمنا وضْعنا كلَّه، ما عدا الخطيئة، الذي شعر بكلِّ ما نشعر، وما اعتبر أنَّ الجوع هو ذنب، فما تردَّد أن يختبر هو نفسه هذه الخبرة، فقبل أن يعرف الحاجات الطبيعيَّة مثل الحاجة إلى الطعام.

فبعد أن صام أربعين يومًا، جاع (مت ٤ : ٢). فأعطى طبيعته البشريَّة، حين شاء، مناسبة للتعبير عن ذاتها. غير أنَّ المجرّب، حين رآه يقاسي الجوع، نصحه بأن يرضيه بالحجارة، أي بأن يميل برغبته الطبيعيَّة باتّجاه ما هو ضدّ الطبيعة. قال: «مرْ هذه الحجارة فتصبح خبزًا» (آ٣). هل نستطيع أن نطلق ملامة على فلاحة الحقول؟ ولماذا الاستخفاف بالبذار بحيث نرفض الطعام الذي تُنتجه؟ لماذا نحكم على حكمة الخالق وكأنَّه لم يهتمّ، بشكل لائق، بطعام البشر؟ فإن بدا،

بعد الآن، أنّ الحجرَ هو أكثر أهليَّة لأن يغذّي، فحكمة اللّه أخطأت في ما نظَّمت للحفاظ على الحياة البشريَّة. «مُرْ هذه الحجارة فتصبحَ خبزًا». ذاك ما قاله المجرّب، وكرَّره للذين يسمعون صوت شهواتهم. وإذ قال هذا، أقنع أولئك الذين يبحثون عن طعامهم في الحجارة. حين يتجاوز الجوع الحاجات، فما هو سوى انجذاب إبليس الذي يرذل الطعام الذي تنتجه الأرض ليرغب في ما ليس من الطبيعة.

نغتذي بالحجارة

يغتذي بالحجارة أولئك الذين يأكلون خبز الطمع، أولئك الذين يهيّئون لنفوسهم موائد فاخرة وغنيَّة بفضل شرورهم. أولئك الذين تجهيزات الوجبة هي شكل من الترف لتحرّك الإدارة. كلُّ هذا لا علاقة له مع حاجة الإنسان. فأيُّ علاقة بين حاجات الإنسان والفضّيَّة الثقيلة والوازنة التي نعرضها؟ وما الجوع إلاَّ الرغبة بما هو ضروريّ. وحين تختفي القوَّة يسعى الإنسان لكي يجدها. فيطلب خبزًا أو طعامًا آخر. فإن حمل إلى فمه الذهب بدل الخبز، فهل يرضي جوعه؟

٤ حين نبحث بدل الطعام عمّا لا يؤكل، لا نلتفت صوب الحجارة، لأنَّنا نطلب شيئًا آخر يهمُّنا. فبالإحساس بالجوع، تعلِّمنا الطبيعة أنَّها تحتاج إلى الطعام لتجدِّد القوى التي خسرها الجسد. أمّا أنت فلا تسمعُ طبيعتك أو لا تعطيها ما تطلب. تسهر على الفضّيّة الموضوعة على المائدة، وتحتاج إلى صائغ. تندفع من أجل الصور التي تحفرها في

المادَّة، لكي تترجم بفضل الفنَّان، العواطفَ والإحساسات: غضب المحارب الذي يمتشق سيفه. وجع المجروح الذي سقط بضربة قاتلة – ونظنُّ أنَّنا نسمعه يئنّ – والصيَّاد الذي ينطلق، والوحش الغضوب، وكلُّ ما يستطيع أن يتمثَّله فنُّ الناس الطائشين على أواني المائدة.

والشرب هو حاجة الطبيعة، ولكنَّه يحتاج إلى ركائز غالية الثمن، الأحواض والآنية، القناني وأغراضًا أخرى لا عدَّ لها، وهي لا علاقة لها بحاجاتنا. أما ترى أنَّ تصرُّفك يصبح نصيحة ذاك الذي يدعوك لكي تنظر إلى الحجارة؟ وما الفائدة من عرض لسائر المأكولات التي تقابل الحجارة: مشاهد الفجور، أقوال وأغنيَّات تحرّك الأهواء وتعدّنا للرذيلة إذ ترافق الطعامَ فترتّب الشهوة.

كلُّ هذا وسوسة من الشرّير. وهذا كلُّ ما يَرسم أمامنا، فيدعونا لكي ننظر إلى الحجارة لا إلى الخبز بكلّ بساطة. فالذي يُبعد التجربة لا يزيل الجوع الطبيعيّ على أنَّه سبب الشرّ. هو يلغي ما هو نافل – بحسب المجرِّب – وما يفرض نفسه كأنَّه ضرورة. ويترك للطبيعة الاهتمام بأن تحدّد تخومها الخاصَّة.

والذين يصفُّون النبيذ لا يعرفون فائدته. وحين يتطهَّر يشربون النبيذ الجيّد. وكذلك الكلمة الإلهيّ، المتنبّه والواعي لكلّ ما هو غريب عن طبيعتنا، يعمل بدقَّة نفسيَّته بحيث لا يستبعد الجوع من حياتنا لأنَّه يؤمِّن حفظنا في الحياة، ولكنَّه صفَّاه هو أيضًا، فرذل ما هو نافل، وقال: من يوفّق كلام الله وحاجات الطبيعة هو من يعرف خبز الحياة.

الجوع الحقيقيّ

فإذا كان يسوعُ جاع، فالجوع يمكن أن يكون خيرًا حين نشعر به كما شعر هو به. وإذا عرفنا ما إليه يجوع الربّ، نعرف بوضوح بُعد هذه التطويبة التي تقدَّم لنا الآن.

فما هو هذا الطعام الذي لا يستحي يسوع بأن يرغبه؟ قاله لتلاميذه بعد حواره مع السامريَّة: «طعامي أن أعمل مشيئة أبي» (يو ٤ : ٣٤). ومشيئة الآب واضحة: يريد أن يخلّص جميع الناس فيبلغوا إلى معرفة الحقّ (١ تم ٢ : ٤). فإذا كانت رغبته أن نخلُص، وإذا كانت حياتنا طعامه، نعرف في أيٍّ اتّجاه ينبغي أن يتوق استعدادُ نفسنا.

ما معنى هذا الكلام؟ ينبغي علينا أن نجوع إلى خلاصنا الخاصّ. وكيف نحفظ في ذاتنا مثل هذا الجوع؟ ذاك ما تعلّمنا هذه التطويبة: فالذي يرغب في برّ الله يجد ما يشكّل الرغبة الحقَّة. وهذه الرغبة لا يرضيها شكلٌ واحد على مثال الذين يتبعون اندفاعاتهم، لأنَّه لا يرغب فقط في البرّ بشكل طعام، وإلاَّ يبقى في منتصف الطريق بالنسبة إلى الكمال. في الحقيقة، الخير المرغوب به يشبه الشراب، والعطش يعني الحرّ وحرارة الرغبة. وحين يكون حلقنا جافًّا ونحترق من العطش، نعالج كلَّ هذا حين نأخذ شرابًا.

والرغبة في الطعام تشبه الرغبة في الشراب. ومع ذلك هناك اختلاف بين الاثنتين. لذلك أوصانا الكلمة الإلهيّ بأن نتوق إلى الخير السامي. فيدعو سعيدًا ذاك الذي يشعر بالجوع والعطش إلى البرّ معًا،

لأنَّ موضوع رغبتنا يكون في إرضاء هذين التوقين: يهب الطعام الأساسيّ للذي هو جائع، وشرابًا لمن يتوق إلى النعمة ليطفئ عطشه: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ لأنَّهم يُشبعون».

ماذا يعني البرّ؟

٥ إذا كان التوق إلى البرّ هو ينبوع غبطة، فالذي يبحث عن الحكمة وعن الفطنة وعن الاعتدال في الطعام والشراب أو عن فضيلة أخرى، أما يعلنه الكلمة الإلهيّ سعيدًا؟ إليك ما يبدو لي معنى هذا الكلام: البرّ هو إحدى الصفات التي ندعوها فضائل. وكلمة الله يدلّ مرارًا على الكلّ بالجزء. وهكذا حين يحدّد الطبيعة الإلهيَّة ببعض التأكيدات. فالنبيّ قال حين تكلَّم باسم الله: «أنا هو الربّ، ذاك هو اسمي إلى الأبد. تذكره أجيال الأجيال» (إش ٤٢: ٨). وفي مكان آخر قال: «أنا هو الذي هو». وفي مكان ثالث: «أنا الرحيم» (خر ٢٢: ٢٧). وهناك أسماء أخرى لا عدَّ لها تترجم عظمة الله وجلاله، في الكتاب المقدَّس. ونستطيع أن نستنتج يقينًا من هذا أنَّنا حين نستعمل واحدًا من هذه الأسماء، فالمجمل هو متضمَّن. أن ندعو الله «الربّ» لا يُلغي سائر التسميات: كلُّها متضمّنة في تسمية واحدة. ألهمها الكلمة الإلهيّ فدلَّ هكذا على الكلّ بالجزء.

فحين يقول الكلمة الإلهيّ إنَّ البرّ يخصّ أولئك الذين هم في جوع مغبوط، يريد أن يدلّ على كلِّ نوع من أنواع الفضيلة. ويدعو أيضًا مغبوطًا ذاك الجائع إلى العفَّة وإلى الشجاعة وإلى الحكمة وإلى

كلِ ما تتضمَّنه لفظةُ فضيلة. فلا يمكن لوجهة من الفضيلة، معزولة من الأخرى، أن نعلنها وحدها أنَّها الفضيلة الكاملة. فإذا أهملنا صفة من الصفات التي تؤلّف الفضيلة ننمّي بالضرورة الرذيلة المعارضة: الإفراط يعارض القدر العادل، والجهالة تعارض الحكمة. وكلُّ ما هو معتبر على أنّه رفيع يعارضه المفهوم المعاكس.

فإن كان البرّ لا يضمّ الكلّ، فلا وجود لخير آخر خارجًا عنه. وما من إنسان قادر أن يقول: البرّ جاهلٌ، أو هو متهوّر أو بدون قياس. فلا نستطيع أن نعطيه موصوفًا يدلُّ على الرذيلة. فإذا كان البرّ يستبعد كلَّ ما هو رديء، فهو يتضمَّن، إذًا، كلَّ ما هو خير. والحال أنَّ الخير يتضمَّن كلَّ ما يوافق الفضيلة. إذًا، يدلُّ البرّ على كلِّ شكل من أشكال الفضيلة، حين الكلمة الإلهيّ يدعو الجياع والعطاش إلى البرّ، مغبوطين، ويعدهم بأن يشبعهم.

الرغبة وتهدئتها

٦ قال يسوع: «طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ فإنَّهم يُشبَعون». فهذا القول يعني، كما يبدو لي: لا شيء ممّا تطلبه اللذَّة في الحياة يلبّي الانتظار، كما تقول الحكمة في شكل صورة: «البحث عن اللذّة إناء مثقوب» (أم ٢٣: ٢٧). فالذين لا يفكّرون إلاّ بملذّاتهم هم *يتعبون في أن يلبّوها دومًا. والتعب الذي يتعبون، كما نرى، لا نتيجة له ولا غاية. هم ينحدرون في هوَّة الرغبة ويحرّكونها ولا يتوصّلون إلى تهدئتها.*

فالطمّاع الذي يعمل للحصول على ما يطلب، هل يضع يومًا، حدًّا لجشعه؟ من توقَّف عن أن يكون طموحًا لأنَّه بلغ غرض جهوده؟ فالذي شبع ممّا يدغدغ الأذن أو العينين، ممّا يكون لذّة المائدة، هل وجد لذَّة في ما به تنعَّم؟ فكلُّ رغبة جسديَّة، ما إن تشبع حتَّى تجوع.

ويعلّمنا الربُّ هذه الحقيقة العجيبة: وحدها الفضيلة تدوم وتُشبع. فالذي يرتفع إلى إحدى هذه القمم التي هي الحكمة والاعتدال والتقوى تجاه الله، أو أيَّة فضيلة أخرى يعلّمها الإنجيل، فهو لا ينال منها فرحًا موقّتًا أو عابرًا، بل فرحًا متينًا وثابتًا، يرافقه على مدّ حياته. لماذا؟ لأنَّ لا زمن ولا إيقاع للفضيلة، فالفضيلة هي من كلِّ وقت ولا تُتعب أبدًا. والحكمة والطهارة والثبات في الخير والهرب من الشرّ تعملُ دائمًا لأجل من يوجّه عينيه نحو الفضيلة، وهي كلُّها تمنح فرحًا لا ينفصل عنها.

فمن يستسلم بدون كابح للرغبات ولو ضحَّى بالشهوة، لا يستطيع أن يحسّ بلذّة لا نهاية لها. فلذّة الأكل تنتهي بالأكل، ولذّة الشرب بالشرب. وسائر التنعُّمات كلّها تحتاج إلى فترة من الزمن، وراء اللذّة والشبع، لكي تَبرز من جديد.

أمّا امتلاك الفضيلة بعد أن تثبت متانتُها، فلا يُحَدّ في الزمن، ولا يوقفه الشبع. فالذين ينظّمون حياتهم عليها، تحمل لهم شعورًا نقيًّا، متجدّدًا على الدوام، مملوءًا وعميقًا، بالفرح الذي تعطي. لهذا وعدَ

اللّهُ الكلمةُ بتهدئة رغبات أولئك الذين يجوعون مثل هذا الجوع، تهدئةً تُنعش نار الرغبة بدلاً من أن تخنقها.

* ذاك هو التعليم الذي يعطينا الربّ انطلاقًا من قمَّة الحكمة: لا تشتهِ شيئًا يكون البحث عنه بلا نهاية، باطلاً ومحرومًا من المعنى، مثل الذين يجْرون وراء ظلّهم: فالذين يجرون وراء شيء لا يُمسَك، يُفلت غرض جريهم على الدوام ممّن يلاحقه.

* فينبغي عكس ذلك أن يوجّه الإنسان رغبته نحو الأشياء التي يشكّل البحث عنها خيرًا للذي يبحث عنه. فالذي يرغب الفضيلة يمتلكها في النهاية في ذاته، بحيث يكتشف في نفسه غرض رغبته. إذًا، طوبى لمن يجوع جوع الحكمة، فيمتلئ فضيلة. وهذا الملء كما سبق وقلنا، يجتذب لا انتفاء الرغبة بل نموّها، وينموان الواحد مع الآخر. فامتلاك الغرض المرغوب ينبع من قرب الرغبة في الفضيلة. والخير الذي نمتلكه هكذا يحمل معه، بلا شكّ، فرحًا لا حدود له.

وخيرُ الفضيلة لا يحمل عذوبة عابرة، بل يجتاح ملء الزمن. فيفرح الإنسان بأن يتذكَّر الأعمال الصالحة، وكلُّ لحظة من حياته تكون في تناسق معها يتبدّل وجهها. والجزاء المنتظر، في نظري، هو فقط الفضيلة في ذاتها، كعملِ من يعمل الخير وثمنٍ للخير الذي يعمل.

اللّٰه ذاته هو البرّ

٧ وإذا أردنا أن نتكلّم بشكل أكثر تجرُّدًا، يبدو لي أنَّ الربَّ بلفظَي

البرّ والفضيلة، يطرح ذاته لرغبة الذين يسمعونه، وهو الذي صار من أجلنا الحكمةَ الآتية من عند الله، والبرّ والقداسة والفداء (١ كو ١ : ٣٠)، وأيضًا الخبز النازل من السماء والماء الحيّ.

أقرَّ داود أنَّه عطش إلى هذا الماء، حين أنشد في مزمور إلى الله، توق نفسه المغبوط فقال: «نفسي عطشى إلى الله القويّ، إلى الله الحيّ، فمتى أمضي وأحضر أمام وجه إلهي؟» (مز ٤٢ : ٣). يبدو لي أنَّه تعلَّم بوحي الروح تعاليم الربّ العجيبة. فأعلن لذاته بأنَّ مثل هذه الرغبة سوف تُلبَّى، فقال: «فأظهر بارًّا في حضورك، وأشبع من مجدك» (مز ١٧ : ١٥).

هنا تكمن، في نظري، الفضيلة الحقيقيَّة، الخير المعصوم من كلِّ شرّ الذي يجتاح فكر الذين يبحثون عن الخير الأسمى، الله بالذات، الكلمة، الفضيلة التي «تغطّي السماوات» بحسب كلام حبقوق (حب ٣ : ٣). إذًا، بحقّ يُدعى العطاش إلى برّ الله مغبوطين. فمن ذاق الربَّ كما يقول المزمور (مز ٣٤ : ٩)، أي من استقبل الربَّ في قلبه، امتلأ ممّا هو جائع إليه وعطشان، بحسب الوعد: «نأتي أنا وأبي ونجعل فيه منزلنا» (يو ١٤ : ٢٥). وكان الروح القدس سبقهما إلى هناك.

وهكذا، كما يبدو لي، حين ذاق بولس الرسول ثمار الفردوس السرّيَّة، كان في الوقت عينه مشبعًا ولكن جائعًا دومًا. أقرَّ أنّ رغبته شبعت: «المسيح يحيا فيَّ» (غل ٢ : ٢٠). ومع ذلك، مثل إنسان جائع، أحسَّ بما كان يتوق إليه من قبْل فقال: «هذا لا يعني أنّي

أدركتُ الهدف. أو أنّي صرتُ كاملاً، ولكنّي أواصل جريي لكي أبلغ إلى الهدف» (فل ٣: ١٣).

واسمحوا لي أن أتكلَّم بحرّيَّة آخذًا مثلاً لا سند له في الطبيعة: بالنسبة إلى طعام الجسد، فإن لم نبتلع شيئًا أو نرذل شيئًا، وإن هضمنا كلَّ شيء للعمل من أجل نموّ الجسد، فالجسد ينمو بشكل كبير: فالطعام اليوميّ ينمي أبعاد الجسم بشكل آليّ.

فكذلك البرّ – وكلُّ فضيلة ترافقه – لا شيء يُرذل منه حين نغتذي به كما سبق وتصوّرنا بالنسبة إلى الطعام. فهو يُنمي على الدوام وبقوَّة، أولئك الذين ينعمون به.

فإذا فهمنا بما يقوم هذا الجوع، وإذا رذلنا شبع الشرّ، وإذا جُعنا إلى برّ الله، سوف نشبع منه في المسيح يسوع ربِّنا الذي مجده ثابت إلى دهر الدهور.

التطويبة الخامسة

طوبى للرحماء

١ قد تكون مقابلة بين رواية يعقوب، حين رأى في الحلم سلَّمًا تنطلق من الأرض حتّى أعالي السماء، والله على قمَّتها، وتعليم التطويبات الذي يرفعنا بدرجات باتّجاه حقيقة أسمى.

في الحالة الأولى، رسم أبو الآباء الحياة الفاضلة، التي في رأيي، تعلّمنا بصورة السلّم وتُفهم الذين يأتون بعده أنَّه يستحيل الارتفاع إلى الله، إذا كنَّا لا نوجّه دومًا نظرنا نحو السماء، وبدون رغبة مستمرَّة نحو القمم. وهكذا لا نكتفي بالخير الذي سبق وعملناه، بل ننظر، وكأنَّنا تعساء، حين لم نصل بعد إلى ما هو أسمى.

وهنا تدرُّج التطويبات، البعض بالنسبة إلى البعض الآخر، يُعدّنا للاقتراب من الله، المطوَّب بامتياز وأساس كلِّ تطويبة.

وبما أنَّنا نقترب من الحكمة بمن هو حكيم، ومن الطهارة بمن هو طاهر، ننمو بالله المطوَّب بطريق التطويبات.

أمّا التطويبة فتخصُّ الله بشكل حقيقيّ. لهذا قال يعقوب إنَّ الله

يقف، في شكل من الأشكال، على قمّة السلّم. إذًا، المشاركة في التطويبات ليست شيئًا آخر سوى الاتّحاد بالألوهة التي إليها يقودنا الربُّ بكلامه.

٢ فيبدو لي أنَّ يسوع حين أطلق التطويبة التالية، ألَّه في شكل من الأشكال، ذاك الذي يسمع ويفهم الكلمة: «طوبى للرحماء فإنَّهم يُرحَمون».

اللّه رحمةٌ هو

في أماكن كثيرة من الكتاب المقدَّس، يدعو الناسُ الأتقياء باسم الرحمة، قدرةَ اللّه. فذاك ما فعل داود في المزامير، ويونان في النبوءات، وموسى الكبير، مرَّات عديدة، في لوحي الوصايا، حين دلُّوا على الألوهة. فإذا كان اسم الرحمة يليق باللّه، إلى ماذا تدعوك هذه التطويبة إلاَّ أن تكون اللّه فتحمل الطابع الخاصّ بالألوهة؟

إذا كان الكتاب المقدَّس يدعو اللّه: الرحيم، وإذا كانت التطويبة هي اللّه ذاته، فيتَّضح بشكل نتيجة، أنَّ الإنسان الذي يجعل نفسه رحيمًا يغدو أهلاً بالتطويبة الإلهيَّة لأنَّه بلغ إلى ما يميّز اللّه: «الربُّ بارّ ورحيم، اللّه يرأف بنا» (مز ١١٦: ٥).

فكيف لا تكون السعادةُ للإنسان حين يُدعى، بفضل سلوكه، بالاسم الذي يدلُّ على اللّه في عمله؟

فالرسول الإلهيّ يدعونا، عبر كتاباته، لأن نطلب أعظم النعم

(١ كو ١٢ : ٣١). فينبغي علينا، لا فقط أن نقتنع بأن نتوق إلى الخير (فمن الطبيعيّ للإنسان أن يكون له ميلٌ إلى الشرّ)، بل ينبغي أيضًا أن نتجنَّبَ الغلط في تقييم ما هو الخير.

ففي هذه النقطة، بشكل خاصّ، نغلط غلطات كثيرة في حياتنا: فنستصعب التمييز بين ما هو خير بطبعه ممّا يفترض، خطأً، أنَّه خير، فإن قدَّم الشرّ نفسه عريانًا وما تلوَّن بمظهر الخير، لما كان يتجرَّأ الإنسان أن يستسلم له. فنحن نحتاج إلى العقل لنفهم النصَّ الذي يُعرَض علينا بحيث نتعلَّم الجمال الحقيقيّ ونجعل حياتنا موافقة له.

فالاعتقاد باللّه مولودٌ مع كلّ إنسان. ولكن حين نجهل ما هو اللّه في الحقيقة، يحرّك هذا لدينا أغلاطًا خطيرة بالنسبة إلى موضوع عبادتنا. فالبعض يشاهد الألوهة الحقيقيَّة في الآب والابن والروح القدس. أمّا البعض الآخر فيضلُّون في تصوّرات عبثيَّة ويبحثون عن اللّه في الخلائق بحيث إنَّ ابتعادًا قليلاً عن الحقيقة يفتح الطريق إلى الكفر.

ونقول الشيء عينه عن الحقيقة التي تُعرَض علينا هنا: إذا كنَّا لا ندرك معناها الحقيقيّ، فيمكن أن نتأسَّف أنَّنا تهنا بعيدًا عن الحقيقة.

ما هي الرحمة؟

٣ فما هي الرحمة وكيف تمكن ممارستُها؟ وكيف يكون سعيدًا ذاك الذي يتقبّل ما يعطي؟ فقال: «طوبى للرحماء، فهم أنفسهم ينالون الرحمة».

المعنى الأوَّل الذي يطرق فكرَنا هو التالي: تدعو هذه التطويبةُ الإنسانَ إلى المحبَّة المتبادلة وإلى الحنان، بسبب اللامساواة والاختلافات بين البشر: فوضعُهم ليس هو هو، ولا تكوين جسمهم ولا ذات الاستعدادات في مختلف المجالات. ومرارًا وتكرارًا تقدّم لنا الحياةُ أصولاً متعارضة: القوَّة والعبوديَّة، الغنى والفقر، الصحَّة السيّئة والصحّة الحسنة، وسائر الاختلافات كلِّها.

فلكي يُتاح للذين هم في حاجة أن يَصلوا إلى المساواة مع الذين يمتلكون الموارد الوافرة، ولكي يقوم التوازنُ بين الكثير الكثير والقليل القليل، لا بدَّ من الحنان باتّجاه أفقر الفقراء. ولا يمكن أن نحاول التخفيف عن شقاء القريب إذا كانت التقوى لم تحنّن النفس بحيث تلهمها الرغبة. فالرأفة تعارض القساوة. والإنسان القاسي والبهيميّ، لا يصل إليه من يحيطون به. والإنسان الرؤوف والرحيم يتشارك مع الذين يتألَّمون، ويتَّحد بهم في موضوع ما يتوقون إليه. ونستطيع أن نحدّد التقوى: الألم الإراديّ الذي نشعر به أمام شقاء الآخرين.

التعاطف يعني نتألَّم مع الآخر

٤ إذا لم يبدُ الشرح السابق كلُّه واضحًا كلَّ الوضوح، نستطيع أن نقدّم شرحًا آخر أكثر إضاءة. فالشفقة هي مجموعة عواطف ودودة مع الذين تعذّبهم محنٌ تجعلهم يحزنون. فكما أصل القساوة والبهيميَّة هو في البغض، فالحبّ يولّد، في شكل من الأشكال، التعاطف الذي لا يمكن أن يوجَد بغير ذلك.

فإن تفحَّص الإنسان الطابعَ الخاصّ بالتعاطف، اكتشف أنَّ ذلك هو محبَّة حارَّة ممزوجة بألم مقابل حزن الآخرين. كلُّ الناس يهتمُّون في مشاركة الآخرين في سعادتهم، أعداء وأصدقاء، ولكنَّ القبول بمشاركة الآخرين في شقائهم يخصُّ فقط أولئك الذين يشتعلون بحبّ حقيقيّ.

من الأكيد أنَّنا نعرف أنَّ بين جميع الفضائل الممارَسة في هذه الحياة، الحبُّ هو أجملها. والتعاطف هو حبٌّ حارّ. إذًا يكون في ملء السعادة ذاك الذي يحفظ نفسه في هذا الاستعداد، لأنَّه يصل إلى قمَّة الكمال.

فلا يرَ أحدٌ هذه الفضيلة في وجهها المادّيّ المحض. وإلاَّ تصبح ممارستها مستحيلة لمن لا يملك موارد ضروريَّة لعمل الخير. فيبدو لي أكثر صحَّة حين نكتشفها في النيَّة. فالذي لا يريد سوى الخير، فإن كان لا يستطيع أن يقوم بإحسان، لعدم الموارد، ليس هو أقلّ في داخله، من الذي يستطيع أن يُبرز لطفه بالأعمال.

والربح الذي يمثّله لحياتنا تفسيرُ هذه التطويبة، لا يحتاج أن يُعرَض، لأنَّ الحسنات تظهر بوضوح حتَّى للذين لا يمتلكون حكمة. لنفترض أنَّ مثل هذا الاستعداد تجاه الأدنى منّا، يُوجَد لدى الجميع. لن يكون بعد رؤساء وأدنياء. فحتّى هذان اللفظان يزولان، والفقر لا يجعل الإنسان يتألَّم بعد، والعبوديَّة تزول، ولا يكون إذلالٌ بعد: كلُّ شيء يكون مشتركًا بين الجميع. فتملك المساواة أمام الشريعة، والحقّ

يتساوى بالكلام، في حياة الناس. فالذي يرئس يجعل نفسه، بملء إرادته، مساويًا للذي هو أدنى منه. فإن كان الأمر هكذا، لا سبب بعدُ للبغض، ولا وجود بعد للحسد، ولا بغض بعد، ويزول الحقد والكذب والغشّ والحرب، وكلُّها أولاد الجشع.

نتخلّص من كلِّ ما يستبعد التعاطف بعد أن يصبح محظورًا، وكأنَّنا ننتزع عشبة رديئة بجذورها، من كلِّ البذار معًا. فحين تُقتلَع الرذائل تكثرُ الخيرات: السلام، العدالة وكلّ ما يرافق توقنا إلى الكمال.

هل يمكن أن تكون سعادة لنا أعظم من أن نعيش في طمأنينة بدون أقفال ولا حجارة، مع سلوكنا الذي يكون الكفالة الوحيدة؟ إذا كانت القساوةُ تولّد القساوة لدى الذين هم ضحيّتها، فالاستعدادات الصالحة لدى الإنسان المتعاطف، تلهم، بشكل طبيعيّ، المحبَّة لدى الذين ينعمون بها.

إذًا، الرحمة هي أمُّ الطيبة، وعربون المحبَّة، ورباط كلِّ صداقة. ماذا نستطيع أن نتخيَّل شيئًا أكثر يقينًا في الحياة من هذه الطمأنينة؟ فبحقّ أعلن الكلمة الإلهيّ «طوبى للرحماء». فهذا اللفظ يتضمَّن خيرات عديدة جدًّا. فعلى الجميع أن يروا أنَّ هذه النصيحة هي مفيدة.

ولكن يبدو لي أنَّ النصَّ يعطينا أن نفهم، بشكل خفيّ، أكثر من الاعتبارات التي ترد طوعًا إلى الفكر وتتطلَّع إلى المستقبل. قال: «طوبى للرحماء لأنَّهم ينالون بأنفسهم الرحمة». فكأنَّ أجر الرحومين سوف يأتي فيما بعد.

وهكذا، بعد أن تركنا جانبًا هذا المعنى السهل الإدراك، الذي يبدو مباشرًا للجميع، ينبغي علينا أن نقارب قدر المستطاع النصَّ بشكل نكتشف فيه ما يختفي وراء الحجاب.

الأكثر هو فيك

٥ «طوبى للرحماء لأنَّهم ينالون هم أنفسهم رحمة». يمكن أن نكتشف هنا تعليمًا أرفع. فالذي صنعَ الإنسان على صورته أخفى بذار جميع الأعمال الصالحة في الطبيعة التي جبَلَها بيده. وهكذا لا شيء ممّا هو صالح يَنفذ من الخارج. فكلُّ شيء يرتبط بإرادتنا. فنُخرج الخير من طبيعتنا كما من بيت المونة.

ومن مثَل خاصّ نستطيع أن نستخرج تعليمًا عامًّا. فلا يمكن أن نجعل الآخرين ينعمون بما لا نملك نحن. لهذا قال الربُّ يومًا للذين يسمعونه: «ملكوت الله فيكم» (لو ٧: ٢١). وقال: «من يسأل ينَلْ، ومن يبحث يجد، ومن يقرَعْ يُفتح له» (مت ٦: ٧–٨). أن ننال ما نرغبه، أن نجد ما نبحثُ عنه، أن نحقّق ما نتوق إليه، كلُّ هذا في مقدورنا كلَّ مرَّة نريده، ويرتبط كلُّه بإرادتنا.

والعكس هو صحيح أيضًا: إنَّ الميل إلى الشرّ يُولَد فينا، دون أن تُمارَس من الخارج ضرورةٌ وإكراه، ساعة نختار الشرّ. فالشرُّ يظهر ويُولَد كلَّ مرَّة نأخذ موقفًا له. هو غير موجود في ذاته. ولا وجود خاصًّا له خارج خيارنا، ولا يَثبت وجوده في أيِّ مكان. وهذا ما يدلُّ

بوضوح على حرّيَّة الاختيار، الذي أعطاه ربُّ الطبيعة للإنسان، لأنَّ كلَّ شيء يرتبط بإرادتنا، الخير والشرّ. فدينونة اللّه، بحكم عادل صادق، تحسب حساب نيّتنا وتعطي كلَّ إنسان ما يُعدّ لنفسه: للبعض - كما يقول الرسول - «الذين يطلبون بمثابرة المجد وكرامة الأعمال الصالحة، الحياةَ الأبديَّة» (رو ٢ : ٧)، والذين يرذلون الحقيقة ويسمعون صوت الجور والغضب، العقابَ بكلِّ قساوته وهو الذي ننتظره بحسب سلوكنا.

كما أنَّ المرآة تجعل الوجه بأمانة، فرحًا إذا كنّا فرحين، معتّمًا إذا كنّا حزانى - وما من أحد يسعُه أن يَتَّهم المرآة لأنَّ ما تعكس هو صورة كئيبة لوجه يَثقلُ الحزنُ عليه - كذلك عدالة اللّه تعيد إلينا باستقامة ما نأتي به نحن. فكما تكون أعمالنا تكون معاملة اللّه لنا. قال: «تعالوا يا مباركي أبي». ثمَّ: «امضوا عنّي، يا ملاعين» (مت ٢٥ : ٣٤، ٤١).

هل هي الصدفة أم ضرورة خارجيَّة تُثقّل علينا، فتمنحنا عرَضًا كلمة طيّبة إلى اليمين وكلمة قاسية إلى الشمال؟ أما هو بالأحرى، بسبب أعمالنا نال الأوَّلون رحمة، ساعة الآخرون، بقساوتهم تجاه من يشبههم، جعلوا حكم اللّه قاسيًا؟

فالغنيّ لم يشفق على الشحّاذ المتألّم عند بابه (لو ١٦ : ١٩-٢٠)، فتمرَّغ في الملذّات. لهذا استبعد نفسه من الشفقة. وحين طلب الرحمة لم يسمعوه.

هذا لا يعني أنَّ نقطة ماء واحدة تسبّب ضررًا للينبوع الكبير في الفردوس، ولكن لأنَّ نقطة ماء الرحمة لا يمكن أن تتواجد مع القساوة: «أيُّ شركة بين النور والظلمة؟» (٢ كو ٦: ١٤). «والإنسان يحصد ما زرعَ. فمن زرع في الجسم البشريّ يحصد فساد الجسم البشريّ. ومن زرع في الروح، يحصد روح الحياة الأبديَّة» (غل ٤: ٦). فالبذار، الإنسانُ يصنعها. وأظنُّ أنَّه هو من يختار. والحصاد هو المجازاة المقدَّمة له بحسب ما اختار. وافرة هي الثمار للذين اختاروا البذار الصالحة، ومتعبةً تكون غلَّةُ أولئك الذين زرعوا في الحياة بذار الشوك. فلا يمكن أن نتجنَّب حصاد ما زرعنا. ويستحيل أن يكون الأمرُ غير ذلك.

شقاواتُ الآخرين وتعاستُنا

٦ «طوبى للرحماء لأنَّهم ينالون رحمة». أيُّ لغة بشريَّة يسعها أن تقول عمق هذا الكلام؟ فالطابع المطلَق واللامحدَّد لهذا القول يسمح لنا أن نبحث عن أكثر من ذلك. إنَّه لا يحدّد تجاه من يليق أن يمارس الرحمة، بل هو يقول بكلّ بساطة: «طوبى للرحماء».

ربّما يجعلنا هذا الكلام نفهم أنَّ عاطفة الحنان ترتبط بتطويبة الذين يبكون (كما في التطويبة الثالثة). طوباه من يقضي حياته في الألم. وهنا يبدو القولُ وكأنَّه يقدّم التعليم عينه. فنحن نتأثَّر بشقاوات الآخرين: حين بعض أقاربنا يتحمَّلون فشلاً لامتوقَّعًا، وحين ينجون من غرق فيجدون نفوسهم في فقر مدقع، أو حين يسقطون في أيدي

القرصان أو اللصوص فيُمسون عبيدًا بعد أن عرفوا الحرّيَّة، أو سجناء بعد أن عرفوا الازدهار. وهكذا يسقطون في العوز، أولئك الذين أنعمت عليهم الظروف. كلُّ هذه الحالات تلهمنا التعاطف مع الحزن.

وقد يكون أكثر ملاءمة أن نبكي خسارة كرامة حياتنا الخاصَّة، حين نفكّر في المنزل الرائع الذي طُردنا منه، وكيف سقطنا بين أيدي اللصوص، وكيف غطسنا في هاوية الحياة، بعد أن تعرّينا كلّيًّا، وكم من الأسياد وأيّ أسياد نعطي لنفوسنا بدلاً من أن نحفظ الحرّيَّة والاستقلال في حياتنا، وكيف خسرنا السعادة على الأرض بالموت والفساد. فهل يمكن للفكر أن يمنح شفقتنا لشقاوات الآخرين ولا نشعر بالتعاطف مع نفوسنا حين نتطلَّع إلى الغنى الذي خسرناه.

وماذا يستحقّ شفقة أكثر من مثل هذه العبوديَّة؟ بدل رفاه الفردوس، حصّتنا في الحياة هي هذه الأرض العقيمة المتمرّدة. وبدل جهْل الألم كما في الماضي، نلنا المشاركة في آلام لا عدَّ لها. وبدل الحياة في مجتمع الملائكة الرائع، حُكم علينا أن نسكن مع الوحوش على هذه الأرض. وعلى أثر هذا الانزلاق من حياة الملائكة التي لا آلام فيها إلى حياة الحيوانات، من يستطيع أن يحصي الطغاة القاسين في حياتنا، الأسياد الغضوبين والمتوحّشين الذين يحكموننا.

الغضبُ سيّد قاس. وآخر هو الحسد. ثمَّ البغض، والحقد وعدد من الأسياد الغضوبين والمتوحّشين. والاستسلام إلى رخاوة الملذّات التي نشتريها وندفع ثمنها بالفضَّة، يدلُّ على نقص في التفكير يجعلنا عبيد

الأهواء والشبق. أيّ إفراط في القساوة لا يتجاوز طغيان الشهوة؟ فهي تستعبد نفسنا المسكينة وتُكرهها على إرضاء رغبات تفترسها بلا هوادة. هي تتقبَّل على الدوام ولا تشبع أبدًا. إنَّها وحش برؤوس عديدة يغذّي عبر أفواه لا عدَّ لها، معدةً لا يمكن إشباعُها.

فلا شبع بالنسبة إلى الطمَّاع: فهو يكدّس الأطعمة ولا يتوقَّف، ويشحذ رغبة الامتلاك أكثر فأكثر. من يقدر أن يتطلَّع إلى هذه الحياة التعيسة ويبقى بدون شعور وبدون شفقة أمام مثل هذه الشقاوات؟

والسبب الذي لأجله نمتلك شفقة قليلة لنفوسنا، هو أنَّنا غير واعين بما فيه الكفاية لشقائنا. فنشبه تقريبًا أولئك الذين أضاعوا عقلهم، أولئك الذين جعلهم الألم المفرط يخسرون الشعور بألمهم. من يعرف نفسه، ما كانه في الماضي وما هو الآن؟ قال سليمان في مكان ما: «الذين يعرفون نفوسهم حسنًا هم حكماء» (أم ١٤ : ٨). وأقول: من يعرف نفسه يشفق دومًا على نفسه. ومثل هذا الاستعداد يجتذب بشكل طبيعيّ رأفة الله. لهذا قال: «طوبى للرحماء فإنَّهم ينالون بأنفسهم رحمة»، هم، لا شخص آخر. وإليك الشرح. فكأنَّنا نقول: طوباه من يعتني بصحَّة جسده!

وكذلك، من هو رحيم هو مطوَّب، لأنَّ ثمرة تحنُّنه تضحي رفاه ذاك الذي يشعر بها، سواء كان الحنان الذي تفحَّصناه الآن، أو ذاك الذي تفحّصناه أعلاه، أي التعاطف مع شقاء الآخرين.

رحمتُنا تَحكمُ علينا

٧ فهذا وذلك هما أيضًا صالحان: ذلك الذي نشعر بها تجاه أنفسنا. كما سبق وقلنا، وذلك التي نشعر بها تجاه الآخرين (مت ٢٥ : ٤٠). ودينونة الله العادلة توافق على طريقة عمل الإنسان تجاه الأكثر وضاعة، فتمنحه خيرًا متفوّقًا بلا حدود. وهكذا يكون الإنسانُ ديَّانَه الخاصّ: تصرّفه يحرّك الحكم، وكذلك بالنسبة إلى الذين يرتبطون به.

وهكذا، بما أنَّنا نؤمن ونؤمن حقًّا أنَّ كلَّ إنسان يمثُل أمام منبر المسيح وأنَّ كلَّ واحد ينال فيه ما تستحقُّه حياتُه، بحسب ما فعل، خيرًا أو شرًّا، قد نستطيع أن نتجرَّأ ونقول هذا – إن كان بإمكان عقلنا أن يدرك ما هو مخفيّ ويفلت من الحواسّ، وأن نتخيَّل منذ الآن، التطويبة والجزاء الممنوح للرحماء: إنّ عرفان الجميل تجاه الذين يمارسون الرحمة، يلبث بشكل مستمرّ في قلب الذين خلال حياتهم نالوا حصَّتهم.

وساعة تأدية الحساب، حين يعرف أولئك الذين نعموا بلطف الآخرين ممَّن أحسن إليهم، كم تكون حالة الغبطة لهذا الأخير حين يسمع، أمام الخليقة كلِّها، المتنعّمين ينشدون أمام الله مدائحه وعرفان جميلهم! هل نستطيع أن نتخيَّل غبطة أكبر من أن نرى نفوسنا معظّمين على مسرح العالم؟

ساعة الاستحقاق

يعلّمنا الإنجيل الذي يرينا دينونة الملك تمارَس بالنسبة إلى الأبرار والأشرار، أنَّ المديونين لحياتنا يكونون موجودين هناك. بالنسبة إلى

البعض وبالنسبة إلى البعض الآخر، يستعمل الديَّان اسم الإشارة ويدلُّ، في شكل من الأشكال، بإصبعه على الذين هم موضوع الكلام: «ما عملتموه لأحد إخوتي هؤلاء الصغار». واسم الإشارة «هذا» يتحدَّث بوضوح عن حضور أولئك الذين نعموا بحسناتنا.

فليقُلْ لي الآن من يفضّل مادَّة لا حياة فيها على الغبطة المقبلة، ماذا يمثّل الذهبُ أمام مثل هذا المجد، وأيَّة حجارة كريمة تشعّ بمثل هذا البهاء؟ أيَّة ثياب مزركشة تقابلِ الجزاء الذي وُعدنا به؟ وحين يتجلّى ملك الخليقة على المسكونة كلِّها، على عرش جلاله، تحيط به آلاف الملائكة. وحين ينكشف على عيون الجميع ملكوتُ الله الذي لا يُوصَف، ومقابله العقوبات الهائلة: تقف البشريَّة من الخلق إلى نهاية الأزمنة، في وسط المسرح، منقسمة بين الخوف والانتظار، مرتجفة أمام انتظارين اثنين وحكمين اثنين ممكنين.

فهؤلاء الذين لا شيء لهم يتّهمون به نفوسهم، يبدأون بالخوف، حين يرون الآخرين مجرورين في الظلمات البرّانيَّة، لأنَّ ضميرهم يتّهمهم. وهؤلاء الذين يسندهم عرفان الجميل من قِبل الذين ينشدون مدائحهم والأعمال الصالحة في حياتهم، يستطيعون أن يقفوا هادئين واثقين أمام الديَّان. أيّ غنًى مادّيّ يقابل مثل هذه الغبطة؟ هل يبادلون هذا الفرح بالجبال والسهول، بالغابات والبحر ولو تحوَّلت إلى ذهب؟

فالطمّاع الذي سجن مامون مع أختام وأقفال وأبواب مصفّحة بحديد في صناديق قويَّة، الذي فضَّل أن يكدّس الخيرات الخفيَّة والمخبَّأة، بدلاً من أن يتبع النصائح الإنجيليَّة، جهَّز لنفسه نار جهنَّم.

وضحايا قساوته اللاإنسانيَّة، خلال حياته على الأرض، سوف يقولون له: «تذكَّرْ أنَّك نلتَ خيراتك خلال حياتك» (لو ١٦ : ٢٣). أقفلتَ الرحمة مع كنزك في صناديقك القويَّة، احتقرت الرحمة على الأرض، ما عرفتَ ما هي المحبَّة خلال حياتك، فلا تستطيعِ أن تنتظر ما لم تملك، ولن تجد ما لم تختزنه، لن تلتقط ما لم توزعه، ولن تحصد ما لم تزرع.

القرار

الحصاد يقابل الزرع. زرعتَ القساوة فاحصد الآنَ حِزَمك. اخترت بأن تكون بلا شفقة، فامتلك الآن ما اخترتَ. ما نظرت إلى قريبك بعطف فلا تنتظر أن تجد العطف. نظرت بلا مبالاة إلى من يتألَّم، فينظرون إليك ماضيًا إلى الهلاك باللامبالاة عينها. هربت من الرحمة فهربت منك الرحمة. احتقرت المتسوّل، فالذي جعل نفسه متسوّلاً من أجلك سوف يحتقرك. ماذا ينفعك ذهبك أمام مثل هذا القرار؟

ماذا تفيدك أغراض البذخ والكنوز التي تكفلها الختوم؟ أين هي الكلاب التي تسهر في الليل، والأسلحة المعدَّة على السرّاق؟ ما قيمة كلِّ هذا أمام البكاء وصرير الأسنان؟ من يضيء الظلمات؟ من يطفئ النار؟ من يسحق الدود الأبديّ؟

لنفكّر، يا إخوتي، في كلام الربّ الذي يعلّمنا في ألفاظ قليلة، أشياء كثيرة حول الحياة الآتية. ولنمارسِ الرحمة لنحصل بها على الغبطة في المسيح يسوع ربِّنا، الذي له القدرة والمجد إلى دهر الدهور. آمين.

التطويبة السادسة

طوبى لأنقياء القلوب

الله صخر عالٍ

١ الشعور الذي نُحسُّ به على قمّة صخر عالٍ يشرف على البحر، حين نلقي أنظارنا إلى وساعة المياه، هو ذاك الذي يهزُّنا من علوّ أقوال الربّ المنحدرة كما من قمَّة جُرف، حين نشاهد الغمر اللامحدود في نطاقاته.

على شاطئ البحر نرى مرارًا حافَّة صخريَّة ترتفع فتقدّم للأمواج مساحة شديدة الانحدار من أعلى إلى أسفل، والتي تُشرف قِمَّتُها فوق هوَّة عميقة. والدوار الذي يسيطر علينا من هذا العلوّ، حين نلقي أنظارنا على اللجج البحريَّة، تُحسُّ به نفسي أيضًا حين يوقفها كلام الربّ فوق اللجج: «طوبى لأنقياء القلوب فإنَّهم يعاينون الله».

فالربُّ يقدِّم ذاته لأنظار الذين قلوبهم نقيَّة. ولكن قال قدّيسنا يوحنّا: «ما من أحد رأى الله يومًا» (يو ١ : ١٨). وأكَّد بولس هذه الفكرة فتحدَّث عن ذاك الذي «لم يره أحدٌ من البشر ولا يستطيع أن

يراه» (١ تم ٦ : ١٦). فاللّه هو هذا الصخر الناتئ والسريع الانحدار الذي لا يسمح لمخيّلتنا أن تمسك به. وموسى أيضًا دعاه في شرائعه: ما لا نستطيع الوصول إليه: وهكذا أثبط عزيمة كلٍّ محاولة اقتراب. وكانت تهديداته منعًا واضحًا من أن نطلبه. قال: «ما من أحد يستطيع أن يرى الربَّ ويحيا» (خر ٣٣ : ٢٠). أو يبقى على قيد الحياة.

ولكن ماذا؟ الحياة الأبديَّة هي رؤية اللّه. ولكن أكَّد عمدُ الإيمان، يوحنّا وبولس وموسى، أنَّ هذه مستحيلة! أيّ دوار! أمام الغمر وما يحيط به. إنّي أُحسَّ بقواي تخور...

إن كان اللّه هو الحياة، فمن لا يراه لا يرى الحياة أيضًا. وأنبياؤنا ورسلنا الملهَمون شهدوا أنَّنا لا نستطيع أن نشاهد اللّه. إذًا في ماذا ينحصر رجاؤنا؟

الأمل بأن نرى اللّه

٢ غير أنَّ الربَّ يُنعش هذا الأمل. أما أعطى البرهان بالنسبة إلى بطرس؟ تحت رجلَي هذا التلميذ الذي اقترب من الغرق، ثبَّت الأمواج وجعلها صلبة (مت ١٤ : ٣٠-٣١). أما تمتدُّ إلينا أيضًا يدُ الكلمة الإلهيّ، نحن الغارقين في هذه اللجج، فتشدّدنا في هذه الوجهة أو تلك؟ عندئذٍ نطمئنّ لأنَّ يد الكلمة الإلهيّ تقودنا بثبات: «طوبى لأنقياء القلوب لأنَّهم يعاينون اللّه».

مثلُ هذا الوعد يتجاوز أدقّ أفراحنا: فبعد هذه السعادة، أيّ شيء

آخر نستطيع أن نرغب فيه؟ أما نناله كلُّنا من ذاك الذي نراه؟ ففي الكتاب المقدَّس، أن نرى الله يعني أن نمتلكه. مثلاً: «ترى سعادة أورشليم» (مز ١٢٩ : ٥)، حيث فعلُ رأى يعني شارك. وإذ قال أيضًا: «يزول الشرّير ولا يستطيع أن يرى مجد الربّ» (إش ٢٦ : ١٠) بيَّن بهذه العبارة أنَّ ذاك سوف يُستبعَد كلَّ الاستبعاد.

وهكذا، ذاك الذي يرى الله يمتلك بهذه الرؤية كلَّ الخيرات التي يمكن تخيّلها: حياة لا نهاية لها. عدم فساد في استمرار. فرحًا لا ينفد (ماؤه مثل نبع يتدفَّق). افتتانًا أبديًّا. نورًا حقيقيًّا. أقوال الروح العذبة. مجدًا لا يضاهيه مجد. ابتهاجًا لا يتوقَّف أبدًا. وبمختصر الكلام، جميع الخيرات. فكم تقدّم لنا هذه التطويبةُ من آمال كبيرة وجميلة!

طهارة مستحيلة

ولكن نقول: تتعلَّق رؤية الله بطهارة قلوبنا. وهكذا يأخذني الدوار من جديد. فماذا إذن؟ طهارة قلبي أما هي مستحيلة؟ أما تتجاوز قواي؟ قيل: تجعلنا نرى الله. ولكنَّ موسى وبولس لم يستطيعا أن يرياه، وشهدا أنَّه لا هما ولا أيّ شخص يستطيع أن يشاهد الله. عندئذٍ يبدو أنَّ الوعد الذي وَعدنا به الكلمةُ الإلهيّ في هذه التطويبة، لا يمكن أن يتحقَّق. ما يهمُّنا أن نعرف كيف نرى الله، إن لم تكن لنا وسيلة لذلك؟ من العجب أن نطير في السماء. قد نستطيع القول أيضًا، فنشاهد في العلى جمالاتٍ نجهلها على الأرض. إذًا، علِّمْنا وسيلة الطيران في السماء فيُفتن سامعوك بأن يعلموا أنَّ هذه الخبرَة أمرٌ

خارق. ولكن ما دمنا لا نستطيع أن نرتفع في الجوّ، لماذا الكلام على سحر هذا الصعود؟ مقابل هذا، ها نحن حزانى جدًّا حين نفكّر بهذه الأفراح الممنوعة علينا. والربّ، أما يحثُّنا أيضًا في هذه الوصيَّة السامية، على خبرة أبعد منّا وتتجاوز إمكاناتنا؟

كلاّ. كما أنَّه لا يطلب من الحيوانات التي لم يمنحها جناحين، أن تطير. ولا أن تعيش في الماء تلك التي أعدَّها لتعيش على الأرض، فالناموس يتكيَّف في كلِّ الأحوال مع إمكانيَّات أولئك الذين يقتبلونه. فهو لا يتصرَّف بعنف مع طبيعتهم. من هنا نستنتج أنَّ هذه التطويبة ليست وعدًا وهميًّا. فلا يوحنّا ولا بولس ولا موسى ولا أيّ واحد من أشباههم، حُرموا من هذا الفرح الذي يتفجَّر من مشاهدة اللّٰه. ولا ذاك أيضًا الذي قال: «ينتظرني إكليل البرّ، ويمنحني إيَّاه الديَّان العادل» (٢ تم ٤ : ٨). ولا ذاك الذي مال على صدر يسوع (يو ٢١ : ١٠)، ولا ذاك الذي ناداه فقال له: «عرفتك بين الجميع» (خر ٣٣ : ١٧). فهؤلاء الرجال الذين أعلنوا أنَّ التمسُّك باللّٰه يتجاوزنا، يستحقُّون بلا جدال، لقب مطوّبين. وسعادتهم هي رؤية اللّٰه التي ترتبط بطهارة القلب. هو برهان بأن طهارة القلب التي تؤسِّس هذا الفرح، ليست ما لا يمكن أن يتحقَّق.

بعد ذلك، نستطيع، دون أن نعارض نفسنا بنفسنا أن نؤكّد مع الناس أنَّ مشاهدة اللّٰه تتجاوز قوانا، ومع الربّ طهارةُ القلب هي وعدٌ برؤية اللّٰه.

اللّه يعرِّف عن ذاته بنشاطاته

٣ أظنُّ أنّه من النباهة أن نبدأ فنذكر بعض المفاهيم التي تتيح لنا أن نتقدَّم في بحثنا، بطريقة منهجيَّة. إنَ طبيعة اللّه في ذاتها، في جوهرها الخاصّ، تتجاوز كلَّ تمثّل وكلَّ تصوُّر: ما من أحد يستطيع الاقتراب منها. فهي تتوارى أمام كلِّ محاولات التعبير عنها. والإنسان ما وَجد في نفسه إمكانيَّة تجعله يفهم ما لا يمكن فهمه. فهو لا يمتلك وسيلة تحوّل أمورًا لا تصوَّر إلى مفاهيم واضحة. لهذا تكلَّم الرسول العظيم عن طرق اللّه: «هي لا تُدرَك» (رو ١١ : ٣٣). فدلَّ بذلك أنَّ الطريق التي تقود إلى معرفة اللّه هي مقفلة أمام عقولنا. وبمختصر الكلام، ما من أحد قبْلنا سار مسيرة حياته وما ترك آثارَ تمثُّل أو تفكُّر يستطيع أن يعطينا فكرة تتجاوز ذهننا.

وبما أنَّ كيان اللّه يتجاوز كلَّ كيان، هناك طرق أخرى لكي نرى ونمسك ذاك الذي لا يسمح لنا بأن نراه ونمسكه. فالطرق التي تبلّغنا إلى معرفته جدّ متنوّعة. فالحكمة التي سبقت وظهرت في المسكونة، تساعدنا على تمثُّل ذاك الذي «خلق الجميع بالحكمة». وأعمالنا نحن أما تعطينا فكرة ولو بسيطة عن الفنَّان الذي نفَّذها؟ والأسلوب أما يظهر في المؤلَّف؟ عندئذٍ لا نرى أبدًا شخص العامل، لكنِ الفنّ الذي يشهد له عمله. وكذلك، حين نتطلَّع إلى النظام الذي يَبرز من الخليقة، نكوّن فكرة لا عن شخص هذا الخالق الحكيم، بل عن حكمته.

ولنتأمَّل أيضًا لماذا نحن موجودون: ما كان اللّه مجبَرًا بأن يخلق

الإنسان، فصنعه في اندفاع حبّ. في هذا المعنى نستطيع القول إنَّنا نرى الله! نحن لا نمتلك إحساسًا بجوهره، بل البرهان على جودته. وسائر العناصر كلّها التي تسير بفكرنا نحو الكمال والتجاوز، تشكّل اقترابًا من الله، لأنَّ كلاًّ من هذه الصفات تساعدنا على الإحاطة بالله: القدرة، الطهارة، اللاتحرُّك، الابتعاد عن كلِّ شرّ. كلُّ هذه السمات تحفر في قلوبنا صورة التسامي الإلهيّ.

تُبين لنا هذه الاعتبارات أنَّ الربَّ يقول الحقيقة حين يعد بأن يتجلَّى للذين قلبُهم طاهر، وفي الوقت عينه، أنَّ القدّيس بولس لم يخطئ حين قال في رسالته: «ما من أحد رأى الله ولا هو يستطيع أن يراه» (١ تم ٦: ١٦). الله لا منظور في جوهره، ولكنَّه يتجلَّى في نشاطاته التي تظهر في بعض ما يحيط به.

غير أنَّ هذه التطويبة لا تعني فقط أنَّنا نستطيع أن نتمثَّل الله انطلاقًا من الأعمال التي يقوم بها. فحكماء هذا العالم يستطيعون هم أيضًا أن يكتشفوا في نظام المسكونة الرائع الحكمةَ والقدرةَ اللتين تتجاوزان الإنسان. أمّا تطويبتنا فتبدو لي أكثر روعة أيضًا لمن يعرف أن يتقبَّل ما يطلب ويفهمه: فهي تحمل في ذاتها نصيحة. وها أنا أوضح فكري بواسطة الأمثلة.

شعاع من الله هو في قلب الإنسان

٤ الصحَّة خيرٌ لحياة الإنسان. أمّا السعادة فلا تقوم بأن نعرف ما

هي الصحَّة، لكن أن نحيا أصحَّاء، معافين. فإنَّني حين أمتدح الصحَّة وآخذ طعامًا لا يُهضَم، قادرًا أن يُتلف مزاجي، فأيَّ خيرٍ آخذُ من هذا المديح وأنا في مواجهة أمراضي؟ لنطبِّق هذا البرهان عينه على الله. فالربُّ يقول إنَّ الفرح لنا لا يقوم بأن نستشفّ الله، بل أن نمتلكه في ذواتنا. لا أظنُّ أنَّ الله يسلِّم ذاته وجهًا لوجه إلى نظر من يكون طاهرًا. هذه العبارة السامية ربَّما تُفهمنا ما تقوله كلمة أخرى في ألفاظ أكثر وضوحًا: «ملكوت الله هو في داخلكم» (لو ١٧: ٢١). هنا نفهم أنَّه مع قلب منقًّى من كلِّ خليقة ومن كلِّ شعور بدنيّ (على مستوى اللحم والدم)، نرى في جمالنا الخاصّ صورة الطبيعة الإلهيَّة. في هذه العبارة القصيرة، يُرسل الكلمةُ الإلهيّ نداء كبيرًا: «يا من تتوقون لرؤية الخير الحقيقيّ، حين يقولون لكم إنَّ عظمة الله جالسة على عرش فوق السماء، وأنَّ مجده لا يعبَّر عنه وطبيعته لا محدودة، لا تقعوا في اليأس فتظنُّوا أنَّكم لن تقدروا أن تشاهدوا ذاك الذي تطلبون». ففيك، في شكل من الأشكال، إمكانيَّة أن ترى الله: فالذي خلقك وَضع في كيانك قوَّة عظيمة. والله حين خلقك، حبس فيك ظلّ صلاحه الخاصّ، كما يُطبع رسمُ الختم في الشمع. ولكنَّ الخطيئة أخفَتْ أثر الله، فأضحى هذا الخير بدون فائدة وهو مخفيّ تحت حجب مدنَّسة. هل تمحو، وأنت تعيش الخير، اللطخة التي توسِّخ قلبك؟ عندئذٍ يشعّ فيك من جديد الجمالُ الإلهيّ.

فأنت مثل قطعة من حديد. يزول الصدأ تحت الحجر الذي تَسنُّه به. كانت سوداء، وها هي تعكس بهاء الشمس وتشعّ بدورها. مثلها،

الإنسان الباطنيّ، القلب، كما يقول معلّمنا (الإلهيّ). حين يتخلّص من الصدأ الذي يلطّخ جمالَه، يستعيد الصورة الأولى ويصبح صالحًا. لا شيء يسعه أن يشبه الخير إن لم يكن خيّرًا. وهكذا الإنسان. حين ينظر إلى نفسه يرى في ذاته من كان يبحث عنه. وها هو الفرح السامي الذي يملأ القلبَ المنقّى: ينظر نقاوتَه الخاصّة فيكتشف الموديل في الصورة. فحين ننظر الشمس في مرآة، وحتّى إن لم نرفع عينينا إلى السماء نرى الشمس في بهاء المرآة وكأنّنا ننظر القرص الشمسيّ بالذات. لا تستطيعون أن تشاهدوا النور في ذاته. ولكن إن وجدتم صورة النعمة الموضوعة فيكم منذ البداية، تمتلكون في ذاتكم موضوع رغباتكم.

النقاوة، الارتفاع فوق الأهواء، الابتعاد عن كلِّ شرّ، ذاك هو الله. فهل هذه الفضائل موجودة فيك؟ يكون الله فيك أيضًا. هل قلبك بمنأًى عن كلِّ رذيلة، وحرّ من كلِّ هوًى، ونقيّ من كلِّ نجاسة، فأنت مطوَّب لأنَّك ترى بوضوح. حين تكون طاهرًا تشاهد أمورًا تُفلت من عيون غير طاهرة. والضباب الذي يعميك تبدَّد وفي سماء قلبك النقيَّة جدًّا تشاهد مشاهدة لا محدودة الرؤية السعيدة. وما هي؟ هي نقاوة، قداسة، بساطة، شعاعات مضيئة خارجة من الطبيعة الإلهيَّة، وهي ترينا الله.

مسيرة صعبة

٥ هذه الاعتبارات تشدّد اعتقاداتنا، وما أزالت بعدُ من قلبنا قلقًا

يُطبق عليه من البداية. فالذي يجد نفسه في السماوات، يثمّن أفراحها. ولكن بما أنَّه يستحيل عليه أن يطير إلى فوق، فما الفائدة من امتداحها؟ كذلك، نظنُّ بسهولة أنَّ قلبًا مطهَّرًا يجعلنا نعرف الفرح السامي. ولكنَّ تنقية القلب هذه تبدو وهمًا مثل الصعود إلى السماء. فأين نجد سلَّم يعقوب والمركبة الناريَّة الشبيهة بتلك التي حملت إيليّا إلى السماء، ليُقاد قلبُنا نحو الجمالات السماويَّة ويتحرّر من كلِّ ثقل أرضيّ؟ (٢ مل ٢: ١١).

ففكّروا إذًا في كلِّ الأهواء التي لا تُقاوَم، تروا أنَّه يستحيل طرد جميع الرذائل المرتبطة بعضها ببعض. فمنذ الولادة نبدأ نخطأ، ونكبر مع الخطيئة. وفي الخطيئة تنتهي أيضًا حياتنا. فكأنّ البشر، الذين استقبلوا الخطيئة في البداية، حين تجاوزوا الوصيَّة، نسجوا الشرَّ في جوهرنا.

فالطبيعة تريد لكلّ نوع من الحيوان أن يستمرّ فينقل إرثه إلى صغاره بحيث تُظهر الصغار ذات الطبائع التي نالَتْها من الحيوان الذي ولدها. ومثلها، يلد الناسُ ناسًا ويحملون، حين يلدون، وهَن الناس وخطايا الناس. فتبدو الخطيئة جزءًا من الإنسان. تُولَد معه، وتنمو معه، ولا تتركه إلاَّ في ساعة الموت.

فنحن لا نبلغ بدون صعوبة إلى الفضيلة. كم من العَرق والمحن! كم من المجهودات والعذابات! ومرارًا ما يذكّرنا بذلك الكتاب المقدَّس: طريق الملكوت «ضيّقة ومنحصرة». أمّا الخطيئة فتقودنا إلى هلاكنا في

طريق واسعة، سهلة، منحدرة. ومع ذلك، يؤكّد لنا الكتاب أنَّنا نستطيع البلوغ إلى هذه الحياة السامية، حين يورد لنا مآثر عدد كبير من الناس.

والوعد بأن نرى الله يأتي في معنيين: من جهة، نُدعى إلى معرفة الطبيعة المتسامية، ومن جهة ثانية، لكي ننضمّ إليها بحياة نقيَّة. والكتاب يعلّمنا أنَّ إحدى طرق هذه المعرفة هي مستحيلة، ولكنَّ الربَّ يعدُ بالأخرى جميع الناس فيقول: «طوبى لأنقياء القلوب، لأنَّهم يعاينون الله».

التمرُّس بالنقاوة

٦ كيف نصير أنقياء؟ ذاك ما تعلّمنا العظة على الجبل في كلِّ مكان تقريبًا. فاقرأوا الوصايا التي فيها، الواحدة بعد الأخرى، تكتشفوا الفنَّ الحقيقيّ في تنقية الإنسان نفسه.

ويميّز الربُّ نوعين من الخطيئة: تلك التي تظهر في الأفعال، وتلك التي تُولَد في الفكر. ففي الشريعة القديمة، كان الله يعاقب الإثم الذي يظهر في الأعمال. واليوم يهاجِم الشكلَ الثاني من الخطيئة، فيعلن شريعة، ويسعى لا أن يعاقب الذنوب التي اقترفناها، بل أن يدمِّر الشرَّ في جذوره بالذات. فهل نستطيع أن نحمي الحياةَ من الخطيئة دون أن نقتلعها من الضمير؟ فالخطايا كثيرة ومتنوّعة. وعلى كلِّ وجهةٍ من وجهاتها يجعل الله سلاحًا، واحدةً من وصاياه.

والغضب، مرارًا، هو أسرع أهوائنا. إذًا نبدأ فنعالج شرًّا جامحًا مثل هذا الجموح، وشريعته الأولى حثٌّ على الوداعة. قال البرُّ: «تعلَّمتَ في الشريعة القديمة: لا تقتل» (خر ٢٠ : ١٣). فتعلَّمِ الآن، أن تطرد من قلبك كلَّ غضب ضدّ الذين يخصُّونك. هو لا يندّد هنا بكلّ نوع من أنواع الغضب، لأنَّ انفجارًا واحدًا قد يبرّرَ أحيانًا، بل بالغضب الذي يجعلنا نقف ضدَّ واحد من إخوتنا دون أن يفيده بشيء: «كلُّ من غضب على أخيه من دون سبب» (مت ٥ : ٢٢). وإذ حدَّد «بدون سبب» بيَّن كيف أنَّ الغضب يمكن أن يكون في محلّه إذا انفجر بشكل توبيخ. فالكتاب المقدَّس لا يتنصَّل من هذا النوع من الغضب: إنّ فنحاس هدَّأ التهديد الذي رماه الله على الشعب حين قتل المذنبين (عد ٢٥ : ١١).

ثمَّ إنَّ المسيح يهاجم الشبق، وتنبيهاته تقتلع من القلب انجذابات الزنى المجنونة. وهكذا نلاحظ أنَّ الربَّ يُصلح في وصاياه جميع الرذائل، الواحدة بعد الأخرى، ويعارض كلاًّ منها بواحد من نواميسه. هو لا يتحمَّل أن نردّ على الشتيمة بالشتيمة، بل يفرض علينا أن نتقبّلها. ويرذل هوى الطمع حين يأمرنا بأن نترك لذاك الذي يأخذ منّا حتَّى الشيء الذي لم يطلبه. ويشفينا من تراخينا حين يفرض علينا أن نتجاوز الخوف من الموت. وبمختصر الكلام، ترون في جميع وصاياه أنَّ سكَّة كلامه تقتلع من عمق قلوبنا جذور الخطيئة الشنيعة، وهكذا ننتهي مع حصاد الأشواك هذا.

أجرُ مجهودنا

تلك هي الحسنات التي يغدقها الله على طبيعتنا: في الوقت الذي يعدها بالسعادة يعلّمها ويكوّنها لنجاح هذا الوعد. لا شكَّ في أنَّنا لا نصل إلى السعادة بدون تعب. ولكن قابلْ هذه الأتعاب مع الحياة التي تبعدك عنها، فترى كم أنَّ الرذيلة متعبة بشكل أكبر، إن لم يكن في الحال فعلى الأقلّ في الحياة الآتية. وحين نعرف ما هي جهنَّم، نقتلع نفوسنا بدون دموع ولا أسف من هذه الملذّات المستنكَرة. فالخوف الذي يجتاح عقولنا يكفي وحده لكي يثبّط عزيمة أهوائنا. وأكثر من ذلك، إذا اكتشفتم وراء الكلمات التي لُفظت تلك التي ما قيلت، لن تكونوا - من أجل أكبر خير لكم - إلاَّ أكثر حرارة: «طوبى لأنقياء القلوب».

وكم يكونون تعساء أولئك الذين امتلأت عقولهم بالنجاسات! فهم لا يرون وجهًا آخر سوى وجه العدوّ. أمّا وجود بارّ فمطبوع في صورة الله. أتُحسُّون أنَّ حياة منحرفة تأخذ لها نموذجًا سمات العدوّ؟ فالله موضوع المعارف المتعدّدة يُدعى بكلّ الألفاظ التي تدلُّ على كماله: الحياة، النور، اللافساد وسائر المزايا. مقابل هذا، جميع الألفاظ المعارضة تنطبق على صاحب الشرّ: الظلمة، الموت، الفساد وسائر الألفاظ المشابهة.

نحن نعرف السمات التي ترتديها حياة الخطيئة أو حياة البرّ. وأمام الخيار لنا الحرّيَّة في أن نختار. إذًا لنهرب من وجه إبليس ولنقتلع قناعَه

البغيض. وإذ نرتدي صورة الله، ننقّي قلبنا. هكذا نمتلك الفرح، وتشعّ فينا صورةُ الله بفضل طهارتنا، في المسيح يسوع ربِّنا الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

التطويبة السابعة

طوبى لفاعلي السلام

١ في بناء الخيمة المقدَّسة، في خيمة الشهادة التي صنعها المشترع (موسى) من أجل بني إسرائيل بحسب النموذج الذي دلَّه الله عليه، على الجبل (خر ٢٥: ٩)، كلُّ ما وُجد في داخل محيط الحبال، كان مقدَّسًا، مكرَّسًا. ولكن بالنسبة إلى القسم الداخليّ، الداخليّ، ما كانوا يدخلون إليه. كان محرَّمًا عليهم الاقتراب منه. فدعوه قدس الأقداس. وأظنُّ أنَّهم كانوا يدلُّون وهم يضعون هذه العبارة المركَّزة، على أنَّ هذا المكان يشارك في القداسة بشكل يختلف عن سائر الأمكنة: بقدر ما المكرّس، المقدَّس، يتفوَّق على العاديّ، الدنيويّ. فهذا المكان المحرَّم كان أكثر قداسة وأكثر طهارة من المكان المقدَّس الذي كان يحيط به.

قدسُ أقداس سرِّ الله

وبالصورة عينها، أظنّ، في التطويبات التي سبق وقُدّمت لنا على الجبل، كلُّ ما سبق وثبَّته كلامُ الله هو مكرَّس، مقدَّس. ولكن ما

يطرح نفسه الآن لتفسيرنا هو، في الحقيقة، ما لا يمكن الوصول إليه، هو قدس الأقداس لأنَّه إن كانت «رؤية الله» خيرًا لا يمكن تجاوزه، أن نصير «ابن الله» يتفوَّق إطلاقًا على كلِّ سعادة. أيَّة ألفاظ تُصوِّر ذلك؟ أيَّة موصوفات يستطيع معناها أن يُفهمنا مثل هذا الوعد، مثل هذه الموهبة؟ فكلُّ ما يستطيع المفكّر أن يتصوّره يتجاوز إطلاقًا كلّ ما يريد هذا النصّ أن يبيّنه: هل تسمّي «الصالح»، «الثمين»، «الرفيع» ما وُعدنا به في هذه التطويبة؟ فما تريد أن تبيّنه هو أكبر ممّا تقوله هذه الألفاظ: فالنجاح يتجاوز التمنّي. والموهبة تتجاوز الأمل، والنعمة تتجاوز الطبيعة.

الإنسان أمام الله

فمن هو الإنسان، حين نقابله بالطبيعة الإلهيَّة؟ ومن أيّ من القدّيسين في وسعي أن أستعير كلمات الاحتقار للجنس البشريّ؟ حسب إبراهيم: «تراب ورماد» (تك ١٨ : ٢٧). حسب إشعيا: «العشب» (إش ٤٠ : ٦). حسب داود، حتّى لا عشب، بل «مثل العشب» (مز ٣٧ : ٢). قال إشعيا: «كلُّ بشر هو عشب»، وداود «الإنسان هو مثل العشب». وحسب سفر الجامعة: «باطل» (جا ١ : ٢). وحسب بولس الرسول: «شقاء» (١ كو ١٥ : ١٩). فالألفاظ التي استعملها الرسول ليدلَّ على نفسه، يستعملها ليدلَّ على شقاء مجمل الجنس البشريّ؛

من هو اللّه؟

إذًا، هذا هو الإنسان. واللّه، من هو إذن؟ آه، كيف أتكلَّم عمَّا لا نستطيع أن نراه، عمّا لا تستطيع الأذن أن تدركه ولا القلب أن يفهمه؟ أيَّة لغة تتيح لي أن أعلن طبيعته؟ من هذا الخير، أيُّ مثَل يسعُني أن أجد في مجال ما هو معروف؟ أيَّة لغة جديدة أستنبط لأدلَّ على ما لا يُقال وعلى ما لا يُعبَّر عنه؟

سمعتُ الكتاب الملهَم وطروحاته العظيمة حول طبيعة العليّ. ولكن ما هذا تجاه هذه الطبيعة بالذات؟ فالكلمة تفوّهت بما أقدر أن أفهم، ولكنَّها لم تستنفد وساعة الموضوع.

إنَّ الذين يتنشَّقون يمتصُّون الهواء، كلٌّ واحد بحسب إمكاناته الخاصَّة: هذا أكثر وذاك أقلّ. ومع ذلك، فالذي يمتلك إمكانيَّة تنشُّقيَّة أكبر لا يمتصّ هذا العنصر (أي الهواء) كلّه: هو امتصَّ من كلِّ الهواء ما أتاحت له إمكاناته، والباقي كلُّه يلبث هنا. وبالطريقة عينها، حين الكتاب المقدَّس يتكلَّم عن اللّه في الطروحات التي يعطينا أولئك الذين ألهمهم الروح القدس، فهم يفعلون بقدر فهمنا مع طابع رفيع وعظيم متجاوزًا كلَّ عظمة. ولكنَّ فهمنا هذا لا يدرك العظمة الحقيقيَّة. «من قاس السماوات بالشبر وكال مياه البحر بكفّه وكلَّ الأرض بكيلة؟» (إش ٤٠ : ١٢). أنتظر نبلَ هذا الوصف لقدرةٍ لا يمكن الكلام عنها. ولكن ما هذا تجاه الواقع؟ بالتأكيد هو جزء من عمل اللّه تعبّرُ مثلُ هذه الاستعارات العظيمة التي نجدُها في نصّ النبيّ. أمّا القدرة عينها التي

منها خرج هذا العمل – لئلاَّ نتكلَّم على الطبيعة التي صدرَت منها هذه القدرة! – فما عبَّر عنها، لأنَّه ما كان قادرًا بأن يفعل.

ولكنَّه يوجّه كلامه أيضًا إلى الذين يفترضون افتراضات، فيتمثّلون الألوهة انطلاقًا من شيء آخر. فيكتب أحدهم وكأنَّ كلامه خارج من فم اللّه. وهذا ما يقول: «بمن تستطيع أن تقابلني، يقول الربّ؟» (آ١٨) هي النصيحة عينها التي يتضمَّنها سفرُ الجامعة في ألفاظ خاصَّة به: «لا تستعجل لتتكلَّم أمام وجه اللّه. فاللّه هو في السماء، فوق، وأنت على الأرض تحت» (جا ٥: ١). وهكذا بيَّن، كما أظنّ، عبر المسافة التي فيها تبتعد العناصرُ الواحدُ عن الآخر، وبأيّ قدر تتجاوز الطبيعةُ الإلهيَّة الأفكار الأرضيَّة.

ابن اللّه

بهذا الشيء الذي هو جميل جدًّا وعظيم جدًّا، الذي لا يصل إليه النظر ولا الأذن، ولا الفكر، يتَّحد به الإنسان الذي يُعتبَر بلا قيمة وسط الكائنات. هو الرمادُ والعشبُ والباطل، ومع ذلك يتَّحد به اتّحادًا حميمًا: اعتُبر ابنًا بفم إله المسكونة. فماذا نستطيع أن نجد من لياقة لنؤدّي الشكر على هذا الإحسان؟ أيَّة لغة، أيّ عقل، أيَّة حركة تفكير تساعد على الاحتفال بهذا الفيض الفائض من النعمة؟ فالإنسان يخرج من طبيعته: من مائت يصبح لامائتًا. من الفاسد إلى اللافاسد. من العابر إلى الأبديّ. وبمختصر الكلام، من إنسانٍ، يُصبح اللّه، لأنَّ الإنسان الذي حُسب أهلاً لأن يكون ابن اللّه، يمتلك، بكلّ

تأكيد، في ذاته، كرامة اللّٰه أبيه ويمسي وارث جميع الخيرات الأبديَّة. يا لجودة غنى المعلّم الإلهيّ! يا للكفّ المفتوحة بوساعة! يا لليد العظيمة! بأيّ عظمة هي هذه الموهبة، موهبة الكنوز الخفيَّة! فإلى وضع يكاد يكون مجيدًا مثل المجد الخاصّ يقود حبُّ اللّٰه للإنسان طبيعتنا التي خسرت كرامتها بالخطيئة. فإذا كان اللّٰه أعطى البشر بأن يتّحدوا بطبيعته الخاصَّة اتّحادًا حميمًا، فماذا نجد هنا، بفضل علاقة القرابة هذه، سوى الوعد بمجدٍ يشبه مجده؟

بأيّ ثمن؟

٢ إذًا، ما هو الثمن؟ بل ما هي المحنة؟ قال: فاعل السلام سوف يكلَّل بنعمة التبنّي. ويبدو لي أنَّ المهمَّة التي لها يعِدون بأجر عظيم جدًّا، تشكّل في ذاتها هديَّة أخرى. فبين الأشياء التي نسعى للحصول على التنعُّم بها خلال حياتنا، ما من شيء أعذب للبشر من حياة هادئة. فكلُّ بهجات الحياة التي يمكن أن نعدِّدها، بحيث تكون سارَّة لنا، تحتاج إلى السلام. فإن كان لنا كلُّ ما هو ثمين في الحياة من غنًى وصحَّة وزوجة وأولاد وبيت وأهل وخدم وأصدقاء، الأرض والبحر كلاهما يغدقان غناهما الخاصّ. الحدائق، الصيد، الحمّامات، ميادين الرياضة والجمباز. أماكن المتعة للجميع وأماكن التسلية للشبيبة. وكلُّ ما نستنبط من أجل اللذّة. ونضيف على كلٍّ هذا لذَّة العروض التمثيليَّة، وحفلات الموسيقى، وسائر التسليات التي بفضلها يستطيع الناس المترفّهون أن يتمتَّعوا بالحياة. إذا كان لنا كلُّ هذا، ولكن لا هذا

الخير الذي هو السلام، فأيّ ربح يكون لنا إذا الحرب منعتنا من التمتُّع بهذه الخيرات؟ إذًا، هذا السلام مدعاة للرضى للذين يشاركون فيه، وهو يعطي حلاوة لكلّ ما هو ثمين في هذه الحياة.

حسنات السلام

وأكثر من هذا. فإن أصابنا أيُّ شقاء بشريّ، ساعة نكون في السلام، فمزيج الشقاء مع خيرٍ ما، يجعله أسهل لكي نتحمّله. ولكن إن ألقت الحرب بثقلها على حياتنا، نصبح مجمَّدين في شكل من الأشكال، في هذا النوع من مناسبات الكآبة، لأنَّ التعاسة العادية تتجاوز بالعذاب الصعوبات الخاصَّة.

ويقول الأطبَّاء بالنسبة إلى انفعالات الجسد: إذا أصاب مرضان اثنان في الوقت عينه، ذاتَ الجسد، نشعر فقط بالأكثر خطرًا. فنكون هكذا وكأنَّنا لا نحسُّ بالوجع الذي هو أقلّ أهمّيَّة، لأنَّه مخفيّ بالعذاب المسيطر الذي يغطّيه. وكذلك شرور الحرب حيث تكثر الآلام وتكثر فتُعِدّ الأفراد لعدم الإحساس بشقاواتهم الخاصَّة.

شرور الحرب

ولكن إن أمسك النفسَ بعضُ تجمُّد يجعلها لا تشعر بالشقاوات الفرديَّة، بعد أن ضربتها إصابات شقاء الحرب العاديّ، فكيف تحتفظ بالإحساس باللذَّة؟ ها هي الأسلحة والجياد، والحديد المسنون والبوق

الذي يلعلع. الفيالق حاملة الرماح، والتروس المرصوصة الواحد قرب الآخر، والخوذات بريشها الذي يتحرَّك بشكل مرعب، والصدامات والتدافعات والاختلافات والقتالات والمجازر والهروبات والملاحقات وتأوّهات الجرحى وصرخات الحرب والأرض التي سقتها أمواج الدم. والأموات المداسون بالأرجل. والجرحى المتروكون على الأرض وكلّ القساوات التي ترافق الحرب. في مثل هذه الأوضاع هل نستطيع يومًا أن نميل بفكرنا نحو تذكُّر السعادة؟ ولكن إذا تقدَّم إلى الفكر تذكُّرُ سعيد، أَوَلا يُضاف إلى شقاء حاضر تذكُّر الذين أحببنا فيعود إلى فكرنا؟

إذًا، ذاك الذي يعطي الأجر، فإذا لبثنا بمنأًى عن الشرّ الذي هو الحرب، يهبنا هو عطيَّتين: العطيَّة الأولى هي الثمن، والثانية هي المحنة عينها.

ثمن السلام

لهذا، وإن لم يكن الرجاء وعد شيئًا لمثل هذا الموقف، فالسلام يفضَّل على كلِّ شيء في ذاته وبسببٍ من ذاته. وهو أهل لأن نبحث عنه بحرارة كبيرة، على الأقلّ بالنسبة إلى الناس العقّال! والحال أنّه يسعنا أن نتعرَّف إلى فيض حبّ الله للبشر حين يعطي أطيب مجازاة، لا للألم والعرق، بل للشعور بالرفاه في شكل من الأشكال وبالمسرَّة والرضى. فبالحقيقة، إنّ علَّة الفرح الرئيسيَّة هي السلامُ الذي يريده الله في الجميع حضورًا كبيرًا جدًّا بحيث لا يحتفظ به إنسان له وحده، بل يتقاسم الزيادة مع أولئك المحرومين منه.

٣ قال: «طوبى لفاعلي السلام». ففاعلُ السلام هو الذي يعطي السلام للآخرين. ولا يسعنا أن نقدِّم للآخرين ما لا نمتلكه في ذاتنا. إذًا ينبغي أوّلاً أن يكون الإنسان ذاته، مملوءًا من خيرات السلام فيقدّمها بعد ذلك للذين هم محرومون من مثل هذا الكنز.

ما هو السلام؟

لا نفرض على كلامنا تعبًا نافلاً من أجل تفحُّص عميق! يكفينا، للبلوغ إلى امتلاك خير، فهمٌ مباشر للنصّ. «طوبى لفاعلي السلام». كثيرة هي الأمراض التي تقدّم لها هذه الكلمة (الإلهيَّة)، الدواءَ بشكل موجز. فهذا اللفظ الإجماليّ، وهذه الكلمة العامَّة تضمُّ جميع الحالات الخاصَّة. إذًا، ما هو السلام؟ ذاك ما ينبغي أوّلاً أن نتصوَّره.

وهل السلام شيء آخر سوى استعداد المحبَّة تجاه من يشبهنا؟ إذًا ماذا نستطيع أن نتصوَّر ما يعارض السلام؟ البغض، الغضب، السخط، الحسد، الحقد، الخبث وشقاء الحرب: هل نرى ما هو عدد الأمراض التي تجد علاجًا في لفظٍ واحد؟

فالسلام يقاتل أيضًا كلاًّ من هذه الشرور التي عدَّدناها، فيزيل الشرَّ بمجرّد حضوره. فحين تحلّ الصحَّة محلّه يزول المرض. وحين يظهر النور لن يبقى بعد ظلام. وكذلك حين يتجلَّى السلام تنحلّ كلُّ الانفعالات التي تعارضه.

أمّا عظمة هذا الخير، فأظنُّ أنّه لا يفيد بشيء أن أعرضها أنا في

هذه العظة. لنفكِرْ بشكل شخصيّ في ما هي الحياة لدى الذين يداومون على علاقات متبادلة من الشكّ والبغض: فصُدَفُ الحياة تكون لهم مشؤومة، وكلُّ ما يتعلَّق بالواحد تجاه الآخر مبغضًا. فمُهُم يكون صامتًا ونظرهم معاديًا. أغلَقوا أذنهم على صوت الذي يبغضهم والذين يبغضونهم. كلٌّ من الاثنين يحبّ ما لا يحبُّه الآخر. ومقابل هذا يحسب خصمًا أو عدوًّا ما يجد فيه عدوُّه لذّته.

الغضب يبلبل السلام

٤ كما أنَّ النباتات ذات العطور تملأ الهواء الذي يجاورها بذات العطر اللذيذ، فالله يريد بإفراط أن تكثر فيك نعمة السلام، بحيث تكون حياتك دواء لمرض الآخرين. وعن عظمة هذا الخير نستطيع أن نكوّن فكرة أكثر دقَّة، إذا حسبنا الشقاوات الواجبة لكلّ الانفعالات التي يولّدها سوء النيَّة في النفس. من يسعه أن يعرض بشكل لائق هذا الانفعال الذي هو الغضب؟ أيُّ كلام يصف بشاعة مثل هذا المرض؟ هي انفعالات شيطانيَّة نراها مكشوفة لدى الذين هم في قبضة الغضب. لنفكّر، في موازاة هذا، بالانفعالات التي يُسأل عنها الشيطان والغضبُ: أيُّ فرق بين الاثنين؟ فعين صاحب الشيطان هي ضائعة، محتقنة بالدم، ولسانه مدلًّى، وصوته يقدح برنَّة أبحّة. هذه المظاهر مشتركة بين الغضب والامتلاك الشيطانيّ. من حركات عنيفة بالرأس واضطراب مجنون من اليدين وارتجاف الجسم كلِّه وقَدَمٍ غير ثابتة. هذان المرضان هما موضوع وصفٍ واحد في المصطلحات التي استعملنا.

ونلاحظ الاختلاف الوحيد بين هذا (الغضب) وذاك (إبليس) بقدر ما الأوَّل هو شرّ نخضع له بملء إرادتنا. أمّا الآخر فينقضُّ ضدَّ إرادتنا على الذين يظهر عندهم. والحال، كم هو أهل للشفقة ذاك الذي يكون في شقاء اندفع بذاته نحوه، فيتألَّم من شيء يعارض انتظاره! والمشهد الذي يقدّمه المرض الشيطانيّ لا يمكن إلاَّ أن يحرّك الشفقة. ولكن ما إن نرى الغضب الجامح حتَّى نقتدي به، لأنَّنا نتأسَّف إن لم نتجاوز انفعالنا الخاصّ ذاك الذي سبق له وأصيب بهذا المرض. وحين يعذّب الشيطان جسدَ من يعذَّب، ينحصر الشرّ في الحركة الفوضويَّة في يدَي الممسوس. ولكن أيَّ عنف يعطي الجسدَ شيطانُ الغضب. وحين يفرض الانفعال سلطته، والدم الذي يحيط بالقلب يبدأ بالغليان، ساعة المرَّة السوداء، كما يقال التي هي نتيجة الحالة الغضبيَّة، تنتشر في كلِّ موضع، في الجسم، عندئذٍ يشدّ ضغط البخارات الباطنيَّة على جميع الأعضاء الحسَّاسة في الرأس. تجحظ العينان. وترشقان موضوع الغضب نظرة مضمَّخة بالدم تشبه نظرة التنّين. واللهاث يضغط على الصدر. وتنتفخ عروق الرقبة. وبما أنَّ أنبوب التنفُّس ينضغط، يصبح الصوت، بسهولة، قادحًا. والشفتان، بتأثير من هذه الميزة الباردة التي تنتشر، تصبحان جامدتين وسوداوين. ويصعب عليهما أن تتحرّكا لتبتعدا وتنغلقا بشكل طبيعيّ، بحيث لن يسعهما أن تحفظا في الفم نفسه ما يفيض من اللعاب، فتتركانه يُفلت، في الوقت عينه، مع الكلمات، لأنَّ منسوب الكلام الذي أضحى عنيفًا يجعل البائسَ يُزبد. عندئذٍ نستطيع أن نرى اليدين يحرّكهما المرض. وكذلك الرجلان. والحركة التي تسيطر

على هذه الأعضاء لا تبقى عقيمة كما عند المتشيطنين، بل تسبّب الشقاء للغضوبين الذين تصل بهم الأمور إلى القتال بالأيدي بسبب المرض. فهجوم الخصوم ينطلق مباشرة نحو الأعضاء الحسَّاسة جدًّا. وإذا في القتال تصل الأمور بالجسد، أن يكون في متناول الفم، فالأسنان ذاتها لن تبقى عديمة النشاط. ولكن كما نرى ذلك عند الوحوش، تنغرز في لحم الخصم. ومن يحصي بالتفصيل جميع الشرور التي يولِّدها الغضب؟

إذًا، ذاك الذي يمنع مثل هذه الفظاعة، يستحقُّ حقًّا أن ندعوه سعيدًا وأهلاً للكرامة، بسبب أهمّيَّة الخدمة التي يؤدّي. فإن كان مَن ينجّي الإنسان من أيّ تعب جسميّ، يستحقُّ الإكرام بسبب هذا العمل الصالح، فكم بالأحرى ذاك الذي حرَّر النفس من هذا المرض يعتبره الناس العاقلون أنَّه محسنٌ إلى الحياة. فبقدر ما النفس تتفوَّق على الجسد، بقدر ذلك ذاك الذي يشفي النفوس هو أكثر إكرامًا من الذين يعتنون بالأجساد.

الشرور الأخرى

٥ لا يتخيَّلن إنسان أنَّه، بين الشرور التي يُنتجها البغض، يكون الغضب البغيض هو الآخر في نظري: يبدو لي أنَّ الحسد والتخفّي انفعال أخطر بكثير من الانفعال الذي أشرتُ إليه الآن. فبقدر ما هو خفيّ هو أخطر ممّا هو ظاهر. نحن نحذر أكثر من الكلاب التي لا يشار إلى عنفها بالنباح أو بالهجمة وجهًا لوجه، بل تلك التي تبدو

وادعة ومدجَّنة فتنتظر الوقت الذي يكون فيه انتباهنا مشتَّتًا. ذاك هو الحسد، التخفّي، لدى أناس يغذّي الحقدُ باطنهم وعمق قلبهم، مثل نار خفيَّة، ساعة يتخفَّون فيوفّقون بين ظاهرهم والصداقة.

الحسد

إذا كانت النار مخفيَّة تحت القشّ، فهي تحرق أوّلاً وترمِّد كلّ ما تلامس داخل الكدسة. لا يرتفع أيُّ لهيب منظور ولكن يخرج دخان لاذع، مضغوط بعنف من الداخل. ولكن إذا ما حرّكت الدخانَ نسمةٌ، عندئذٍ ينتعش اللهيب مضيئًا واضحًا. وبالشكل عينه يلتهم الحسدُ القلب من الداخل كما النار تلتهم تلَّة من القشّ. وخجلاً، يُخفي المرضَ دون أن يكون قادرًا أن يخفيه تمامًا. ولكن مثل دخان حادّ، تظهر مرارة الحسد في المواقف التي ترافق المظهر الخارجيّ. فإن أصاب شقاءٌ ذاك الذي نحسده، عندئذٍ ينكشف مرضنا حين نستقبل بفرح ولذّة، متاعب العدوّ. وما يخون العاطفة المخفيَّة، ما دامت غير منظورة، هي إشارات ظاهرة على الوجه. فالعلامات القاتلة في اليأس تمسي مرارًا علامات حريق الحسد: عينان جافَّتان، غارزتان تحت حاجبين منشّفين. جفنٌ عابس. وبدل اللحم نرى العظام... وما هو سبب هذا المرض؟ الحياة بلا همّ لدى أخ أو قريب أو جار. تلك هي أذايا من نوع آخر نشتكي من غياب اللاحظّ أمام إنسان نجاحه يؤلمنا. هذا لا يعني أنَّنا نلنا من لدنه ضررًا نعتبره جَورًا، بل لأنَّه في الازدهار ما اقترف أيَّ جَور...

أيّ شعور، أيُّها التعيس! قد أقولُ له. ماذا أصابك لتحترق هكذا

فترمي نظرًا مرًّا على ازدهار جارك؟ أيَّة حجَّة تستطيع أن تطلب؟ أهو جميل؟ أهو متكلّم؟ أهو من محتدٍ رفيع؟ هل بلغ إلى وظيفة تجعله لامعًا في كرامته؟ وعلاوة على ذلك، هل يمتلك وفرة الخيرات؟ هل كلماته محترمة بسبب حكمته؟ هل هو محورُ جميع الأنظار بسبب أعماله الصالحة؟ هل أولاده هم سبب فرحه؟ هل زوجتُه سعادته؟ هل الناس الذي يؤمُّون داره يجعلونه معروفًا؟ لماذا يَلِجُ كلٌّ هذا قلبك مثل رأس حربة؟ تضرب كفًّا بكفّ. أصابعك تتشنَّج. تفكيرك يؤلمك. تطلق تأوّهات عميقة، معذّبة. وصارت بغيضةً لك لذّةُ الاستقبالات. مائدة مرَّة. منزلك كئيب. تميل أذنك بسهولة إلى من يهشّم الإنسان السعيد. ولكن إن قيل عنه قولاً مستقيمًا، تنغلق عليه أذنك. وفي مثل هذه الحالة النفسيَّة، لماذا تُخفي مرضك تحت حجاب من التخفّي؟ لماذا تجعل قناع الصداقة في تصنُّع من الطيبة؟ لماذا تستقبله بأقوال محبَّبة. وتتمنَّى له الفرح والصحَّة حين تطلق في سرّ نفسك لعنات معاكسة؟

هكذا كان قايين الذي اغتاظ حين رأى هابيل يرضي اللّٰه. فالحسد في قلبه، شجَّعه على القتل، ولكنّ الخبث كان الجلاّد: إذ اتَّخذ وجهًا محبًّا ولطيفًا، أخذه إلى البرّيَّة، بعيدًا عن أيٍّ حضور قد يصلُ إليه والداه (تك ٤).

عملُ السلام

فذاك الذي ينقذ الحياة البشريَّة من مثل هذا المرض، والذي بالطيبة والسلام، يضمُّ الرباطات بين الزملاء، ويقود الناس إلى الصداقة

والتوافق، أما يعمل حقًّا عمل القدرة الإلهيَّة، فيطرد الشرَّ من الطبيعة البشريَّة ليُدخل مكانه التشارك في الخير؟ لأجل هذا، يُدعى فاعلُ الخير ابنَ الله، لأنَّه يقتدي بالإله الحقيقيّ الذي يمنح نعمَه للحياة البشريَّة.

٦ إذًا، «طوبى لفاعلي السلام، لأنَّهم أبناء الله يُدعَون». فمن هم؟ هم أولئك الذين يقتدون بحبّ الله للبشر، هم من تدلُّ حياتُهم على الطابع الخاصّ بالعمل الإلهيّ. فالربُّ مانحُ هذه الخيرات يُدمِّر كلَّ ما هو خارج الخير وغريب عنه ويعيده إلى لاشيء. هذه هي الأعمال التي تفرضها شريعته عليك أنت أيضًا: ترذل البغض، توقف الحرب، تزيل الحسد، تطرد القتال، تدمّر الخبث، تطفئ في نفسك الحقد الذي يُحرق، على مهل، قلبَك. وتُدخل محلَّ كلٍّ هذا جميع الصفات التي تعارضها، فتزيل على التوالي الرذائل المعاكسة.

ثمار السلام

كما أنَّ مغادرة الظلام تدلُّ على مجيء النور، فكلٌّ من هذه الرذائل تترك المكان لثمر الروح: الحبّ، الفرح، السلام، الطيبة، الصبر. كلُّ الخيرات العديدة التي قدَّم لائحة فيها بولس الرسول (غل ٥: ٢٢-٢٣). فكيف لا يكون سعيدًا ذاك الذي يوزّع الهبات الإلهيَّة؟ الذي يقتدي بسخاء الله؟ ذاك الذي، بخيراته الخاصَّة، يتلاقى وَجودَ الله؟

ولكن قد تكون هذه التطويبة تطلّعت إلى أبعد من خير الآخرين. فاسم فاعل السلام، في رأيي، يليق بشكل خاصّ، بذاك الذي يعيد إلى السلام والوفاق، الصراعَ الذي تتواصل فيه بين البدن والروح، هذه الحرب الداخليَّة، الطبيعيَّة، حين شريعةُ الجسد، التي تحارب شريعة الروح، لا تمتلك قوَّة، بل تخضع لسيادة سامية وتَدخل في خدمة الوصايا الإلهيَّة.

ولكن لا نمضِ بشكل خاصّ ونظنّ أنَّ الكلمة تدعونا لأن نتطلَّع إلى حياتَين مختلفتين لدى الذين أصلحوا سلوكهم: بعد أن هُدم جدار الشرّ الذي كان يقسم داخل النفس، تذوب وجهتا الحياة المجتمعتان في مزيج خلاصيّ، في وجهة واحدة. وبما أنَّ الإلهيّ – كما نظنّ – هو نقيّ، بلا مزيج وبلا شكل، حين يَخرج الإنسان من استعداده المضاعف، بفضل مثل هذا النتاج من السلام، ويعود بكلّيَّته إلى الخير، يضحي، هو أيضًا، بسيطًا، بدون شكل، وواحدًا بالحقيقة، بحيث يمسي المنظور شبيهًا بالخفيّ والخفيّ شبيهًا بالمنظور. عندئذٍ تأخذ هذه التطويبة، حقًّا، كلَّ قوَّتها. وينال مثل هؤلاء الناس – في معنًى خاصّ – اسم أبناء الله، وهم الذين أُعلنوا سعداء بحسب وعد ربّنا يسوع المسيح، الذي له المجد إلى دهر الدهور. آمين.

التطويبة الثامنة

طوبى للمضطهدين لأجل البرّ

١ النظام الذي يُشرق على التعليم السامي في عقيدتنا، يقودنا إلى الدرجة الثامنة في تفحُّص الكلمة الحاضر. أمّا من جهتي فأقول إنَّه من الخير أن تسعى عظتي لتُفهم بالدرجة الأولى ما هو – عند النبيّ – سرّ الثُمانيَّة كما يجعله في المقام الأوَّل مزموران (مز ٦؛ ١٢). بعد ذلك، ما هو التطهير وتأسيس الختان، إذ كلاهما يُمارَسان في اليوم الثامن، بحسب الشريعة. ربَّما يكون للعدد ثمانية بعض تقارب مع التطويبة الثامنة. فهي كذروة جميع التطويبات، وُضعت في المكان الأعلى على الصعود الصالح. ففي هذا المقطع، يدلُّ النبيّ على يوم القيامة برمز سرّيّ، رمز اليوم الثامن. ويدلُّ التطهير على عودة الإنسان المنجَّس إلى الطهارة الطبيعيَّة، والختان يعني رذل الجلد الميت الذي ارتديناه بعد العصيان الذي عرَّانا من الحياة. وهنا في التطويبة الثامنة، كلامٌ على تجديد، في السماوات، للذين سقطوا في العبوديَّة، ثمَّ دُعوا لأن يخرجوا من العبوديَّة ليدخلوا في الملكوت.

مهمّات متنوّعة وأجرٌ واحد

قال: «طوبى للمضطهدين من أجلي، لأنَّ ملكوت السماوات هو لهم» (لو ٦: ١٢). ها هي نهاية المحن التي دخلنا فيها من أجل الله، وجائزة متاعبنا وأجرُ عرقنا: أن نُعتبَر أهلاً لملكوت السماوات. فالأصل بالمبرّات لا يتيه بعدُ حول ما هو متقلقل ومتقلّب: فالمنزل الأرضيّ هو منزل الأشياء المتقلّبة والمتبدّلة. أمّا الظواهر والحركات السماويَّة، فنحن ندرك أنَّ ما من واحدة منها تُفلت من الثبات والذاتيَّة. ولكن يُوجَد تسلسلٌ وترتيب وتتابع محدَّد جدًّا، لينظّم الجرْيَ الفرديّ الذي يرسمه كلُّ جسم سماويّ. عندئذٍ ترون أنَّ الأجر يتجاوز كلَّ قياس. فالتطويبة لا تقدّم الأجر الواسع في مجال ما يتغيَّر: فالخوف من بعض تقلُّب قد يملأ كآبةً أكبر الآمال، ولكن حين تشير التطويبة إلى ملكوت السماوات، فهي تبيّن الطابع اللامتبدّل والباقي هو هو ذاته للأجر الذي يعدنا به رجاؤنا.

٢ ولكن إليك في ما تقوله، ما يرد على الفكر لكي أتفحّصه: أوّلا، الربّ يعد المساكين بالروح والمضطهَدين من أجله، أجرًا متساويًا. فالذين ينالون ذات الأجر، ينبغي عليهم أيضًا – وهذا واضح – أنَّ يعبروا النجاح في محنٍ صعوباتُها مماثلة. ثمَّ كيف يحصل أنَّه، بعد أن فصلَ عن الذين هم عن شماله أولئك الذين عن يمينه، ودعا هؤلاء للدخول إلى ملكوت السماوات، أشار، بالنسبة إلى ذلك الأجر، إلى أسبابٍ مختلفة جدًّا؟ ففي الدينونة، يتحدَّث عن الرأفة، تقاسم الخيرات، المحبَّة المتبادلة. ولكنَّه لا يذكر في أيّ مكان المساكين بالروح

ولا المضطهَدين من أجل البرّ. ومع ذلك، وللوهلة الأولى، يبدو أنّ هناك فرقًا كبيرًا جدًّا بين هذين الوضعين. ما هو المشترك بين الفقر والاضطهاد؟ أو أيضًا، أيَّة رنَّة مشتركة بين المحبَّة والرأفة؟ أطعَمْنا المحتاج. ألبسنا الذي كان عاريًا. استقبلنا تحت سقفنا المسافر الغريب. حملنا إلى المريض وإلى السجين العون المناسب: ما هو المشترك بين كلّ هذا من جهة والفقر والاضطهاد من جهة ثانية؟ بالنسبة إلى نوع الحياة؟ في حالة، نخفّف من شقاوات الآخرين. وفي حالة أخرى، يحتاج كلٌّ من المسكين والمضطهَد أناسًا يحملون إليهما العون.

في الواقع، الهدف هو هو في الحالين. فالجري نحو هذا الهدف يقود، بشكل مماثل، إلى السماء، ذاك المسكين بالروح، والمضطهَد من أجل الربّ، والذين دلّوا على الرأفة تجاه نظرائهم.

وماذا نضيف إلى ذلك؟ كلّهم، الكوع مع الكوع والعضلات والتنفّس، يتطلّعون إلى الهدف الوحيد. فنحن نعبر بسهولة من فقر إلى آخر، ومحبَّة الآخرين ليست غريبة عن الفقر بالروح.

ولكن يبدو لي أنَّه يحسن بنا أن ندرس أوّلاً الكلمة الحاضرة. ثمَّ نتفحَّص التوافق وروح ما هو موضوع كلامنا.

من هم المضطهَدون؟

٣ «طوبى للمضطهدين من أجل البرّ». لماذا هم مضطهَدون؟ وبيد من؟ الفكرة الأولى التي تردُ على الذهن ترينا حلبة الشهداء وتبيّن لنا

جرْي الإيمان. فإنَّ اللفظ اليونانيّ «ديوكسيس» (= ملاحقة واضطهاد) يترجم بالمسعى الحارّ للسرعة بالنسبة إلى من يركض. وأكثر من هذا، يعني النصر في السباق. فنحن لا نستطيع أن نربح، بشكل آخر، في السباق، إلاَّ إذا تركنا وراءنا من يزاحمنا. وبما أنَّ ذاك الذي يركض نحو الجائزة التي يعرضها النداء السماويّ، وذاك الذي من أجل جائزة يلاحقه عدوُّه، يكون وراءهما، بشكل مماثل، واحدٌ يزاحمه وآخر يلاحقه (نحن أمام أولئك الذين يقومون بالركض إلى الاستشهاد، في سباق التقوى. يلاحقونهم ولكنَّهم لا يمسكونهم) فرأس التطويبة الموعود بها لرجائنا، يبدو أنَّه عرَضَ، نوعًا ما، إكليلاً من الألفاظ الأخيرة. في الحقيقة، إنَّها لسعادة بأن نُضطهَد من أجل البرّ. لماذا؟ فحين يلاحقنا الشرّ، يكون الباعثُ ثابتًا جدًّا للحصول على الخير. فالانفصال عن الشرّ هو الوسيلة التي تتيح الاقتراب إلى الخير. والخير وما هو أعظم من أيّ خير، هو الربُّ بالذات. وباتّجاهه يصعد جريُ المضطهَد. إذًا، طوباه، بالحقيقة، ذاك الذي يساعده عدوُّه ليمضي نحو الخير! بما أنَّ موقع الحياة البشريَّة على الحدود بين الخير والشرّ، وبما أنَّ ذاك الذي يجري من أعالي رجاء جميل يجد نفسه في الهوَّة، هكذا ذاك الذي ترك الخطيئة وانفصل عن الفساد، يبلغ إلى البرّ والطهارة. فيكون الاضطهاد الذي يسوم به الطغاةُ الشهداءَ موجعًا مؤلمًا في الظاهر وللوهلة الأولى. ولكنَّ هدف كلِّ هذا يتجاوز كلَّ سعادة.

أمثلة من الكتاب المقدّس

ولكن من الأفضل أن نأخذ أمثلة لنرى ما هو معنى هذا الكلام. من لا يعرف أنّنا نعتبر أنّ المعرَّض للمؤامرات يكون أكثر تعبًا من أن يكون محبوبًا؟ ومع ذلك، فهو الطابع المتعب في الظاهر، هو ما سوف يصبح مرارًا سبب سعادة في هذه الحياة. وهذا ما يبيّنه الكتاب بالنسبة إلى يوسف: دبَّر عليه إخوته مكائد وطردوه من رفقتهم، ثمَّ باعوه. ولكن بفضل ذلك أُعلن ملكًا على الذين دبَّروا له المكائد: ربَّما لا يكون بلغ يومًا إلى هذه الكرامة الرفيعة، لو لم يكن حسدُ إخوته فتح له طريق المُلك بسبب هذه المكائد. فلو أنَّ إنسانًا يمتلك معرفة المستقبل عمل ليوسف هذا الإنباء: «هي مكائد مدبَّرة عليك لكي تجعلك سعيدًا» ما كان، للوهلة الأولى، نال ثقة من يسمعه وهو المنشغل في تأمُّل مرارة الحاضر. فهو ما كان صدَّق أنَّ نهاية محاولة شرّيرة أعلنت على أنَّه خير.

وكذلك هنا أيضًا. فالاضطهاد الذي يسومه الطغاة للمؤمنين، وهو موجع جدًّا ومؤلم، يجعل من الصعب أن يقبل البدنيُّون (من لحم ودم) أنَّ هنا الأمل بالملكوت، الذي وُعدوا به لقاء آلامهم. ولكنَّ الربَّ الذي يرى فساد طبيعتنا يذكّر الضعفاء فينا بما هي نهاية الجهاد لكي يجعلهم رجاءُ الملكوت، بطريقة سهلة، منتصرين على الآلام التي يقاسونها الآن.

ذاك هو سبب فرح إسطفانس الكبير في وسط حلقة الذين

يرجمونه. ولهذا تقبَّل جسدُه، بتعطُّش ومثل ندًى عذاب، برَد الحجارة الذي لا يتوقَّف. ولهذا ردَّ بالمباركات على الأشقياء الذين دنَّسوا نفوسهم بدمه، وصلَّى لئلاَّ تسقط خطيئتُهم عليهم! سبق له وسمع الوعد. ورأى أنَّ رجاءه يتوافق مع الأحداث. وإذ سمع أنَّ المضطهَدين من أجل الربّ يكونون في ملكوت السماوات، رأى موضوع انتصاره في الوقت عينه الذي يحتمل الاضطهاد. فركض في مسيرة اعتراف الإيمان حين بان له موضوع رجائه: السماء مفتوحة. مجد الله الذي ينحني من المناطق السماويَّة على حرب الراكض الذي يشهد له في محنه القتاليَّة (أع ٧: ٥٦–٦٠) وحضور الحُكم، دلَّ بشكل خفيّ على المساعدة التي نالها المقاتل، بحيث نعرف هكذا أنَّ ترتيب القتالات وذاك (أي العدوّ) الذي يصطفّ مع أبطاله ضدَّ خصومهم، هما واحد. فما يكون أسعد من أن يُضطهَد الإنسان لأجل الربّ، حين يكون الحَكم بجانبنا في القتال؟

الألم وطبيعة الإنسان

٤ ليس من السهل، وربَّما يستحيل إطلاقًا، أن نفضّل على العذوبات الظاهرة في هذه الحياة، الخير الذي ليس بظاهر، وبالتالي أن نقبل طوعًا أن يُقبَض علينا، أن نطرَد من بيتنا، أن نُحرَم من زوجتنا وإخوتنا وأقاربنا وأصحابنا، ومن كلِّ عذوبات الحياة. هذا مستحيل بدون عون الربِّ ذاته، الذي يدفع إلى الخير ذاك الذي تمَّ اختياره بحسب الوعد. فالذي يسبق ويميّزه، كما يقول الرسول (رو

٨ : ٣٠)، يُعدّه مسبّقًا، يدعوه، يبرّره، يمجّده. وبما أنَّ النفس تنمو بواسطة الإحساسات الجسديَّة، في شكل من الأشكال، في تكامل مع ملذّات الحياة، تُسحَر عيناها عبر الألوان الحلوة في المادَّة، وتميل بالسماع نحو الملذّات السمعيَّة. وبالشمّ والذوق واللمس، وتتأثَّر بإحساسات خاصَّة وطبيعيَّة بكلّ حاسَّة. لهذا السبب، فالملكة الإحساسيَّة، على شكل مسمار، تثبّتها (أي النفس) في ملذّات الحياة التي تستصعب دومًا التحرُّر منها، لأنَّها كبرت وهي مثبَّتة فيها، ومرتبطة بمثل صدفة تغطّيها بشكل سلحفاة ومحارة، إنّها تتعب بأن تدخل في هذه الحركات لأنّها تجرّ وراءها كلَّ ثقل الحياة. لهذا، هي فريسة سهلة، في هذا الوضع، للذين يلاحقونها ويهدّدونها بأن يسلبوا لها خيراتها، وتُدفعها غرامة وتسيء إليها بعض الشيء بما يتعلّق ما تطلبه في هذه الحياة، فريسة تستسلم بسهولة وتخضع لمن يلاحقها.

الإنجيل سيف ذو حدَّين

ولكن حين الكلمة الحيَّة – كما يقول الرسول (عب ٤ : ١٢) – تفعل وتقطع مثل سيف ذي حدَّين، فتلج إلى داخل ذاك الذي تقبَّل الإيمان حقًّا، وتُزيل الفسائل الرديئة وتقطع رباطات السعادة، عندئذٍ يتنفَّض، مثل من يركض، ويحرّر كتفيه من ملذّات العالم كما من حِمل ملتصقٍ بنفسه. وإذ يصبح خفيفًا بلباس قصير يجري في حلبة المحن، تقوده في جريه يدُ الحكَم شخصيًّا. هو لا ينظر إلى ما وراءه، بل إلى ما يلاحق. لا يلتفت نظره إلى ملذّات تركها وراءه، بل ينطلق

نحو الخير الموعود به. لا يتألَّم إن هو خسر خيرات الأرض، بل يفرح بأن يربح خيرات السماء. بسبب هذا، بأيّ اندفاع يتقبَّل العذابات المتنوّعة، التي يعتبرها وسيلة نحو الفرح الذي وُعد به، وعونًا للبلوغ إليه: النار لأنَّها تنقّي المادَّة. السيف الذي يقطع التماسك الطبيعيّ للماديّ والبدنيّ مع الروح. يقبل بسرور كلَّ الآلام وكلَّ الأوجاع التي يمكن أن نتخيّلها والتي يعتبرها مثل دواء ضدَّ سمّ ملذّات الشرّير. وكما أنَّ أهل المِرّة وتراخي البطن يبتلعون طوعًا، دواء مرًّا، تُفرغهم نتائجه من سبب المرض، كذلك المضطهَد يبدو عدوًّا، والذي يلجأ إلى حمى الله يتلقَّى هجمات الوجع التي تفيد في إطفاء نشاط اللذّة: فالذي يتألَّم لا يسعه أن يشعر باللذَّة، وبما أنَّ الخطيئة جاءت باللذّة، فمن الأكيد، أنَّها تُطرَد بما يعاكسها.

المحنة تنقّي المؤمن

فالذين يَضطهدون من يعترفون بالربّ، ويستنبطون عليهم العذابات التي لا يمكن احتمالها، يحملون بواسطة العذاب شبه دواء لنفوسهم فيعتنون بالمرض الذي ولّدته اللذّة، باستخدام الألم. فهكذا اقتبل بولس صليبه (غل ٦: ١٤). ويعقوب، السيف. وإسطفانس، الحجارة. وبطرس المطوَّب، الصلب ورأسه إلى أسفل. وجميع أبطال الإيمان الذين أتوا بعدهم، احتملوا أنواع العذابات المختلفة: أُسلموا إلى الوحوش، أُلقوا في عمق الأغوار، عُرضوا على المحرقة أو البرد، تمزَّقت أحقاؤهم، سُحق رأسهم في كمّاشة، اقتُلعت عيونهم، قُطعت

أصابعُهم، انفسخ جسمهم إلى الاثنين بالركبتين، ماتوا من الجوع: كلُّ هذا وكلُّ ما يشبهه، تقبَّله القدّيسون بفرح بشكل تطهير من الخطيئة بحيث لا يبقى في قلبهم أيُّ أثر طبعته اللذّة. فالشعور بالوجع القاسي يمحو كلَّ الآثار التي تطبعها اللذَّةُ في النفس.

المحنة تحرِّرُ المؤمن

٥ إذًا، «طوبى للمضطهَدين لأجلي». في هذا الشكل (ينبغي أن نفهم أيضًا النسخة الأخرى لقول الربّ) نبدو وكأنَّنا نعطي الصحَّة إمكانيّة الكلام. فقد يقول: طوبى للذين أفلتوا من المرض بسببي. فالابتعاد عن المتاعب والمرارات تتيح العودة فيَّ للذين كانوا مرضى في ما مضى.

وهكذا نَسمع الصوت وكأنَّ الحياة نفسها تعلن لنا تطويبة، سعادة من هذا النوع: ما أسعد الذين يضطهدهم الموت بسببي! وكذلك البرّ والتقديس والطهارة والطيبة، وكلُّ فكر وكلُّ قول يصيب الخير. إذًا، ينبغي أن نفكّر أنَّ الربَّ، بقدر ما نفهمه، يتكلَّم هكذا: «طوبى لمن ابتعد من كلِّ نوع شرّ وفساد وظلام وخطيئة وجَور وطمع وكلّ ما يُبعد أقوالاً وأعمالاً وأفكارًا فاضلة. فمن يكون خارج الشرّ يكون قائمًا في الخير». قال الربّ: «من يقترف الخطيئة هو عبد الخطيئة» (يو ٨: ٣٤). فذاك الذي تخلَّص ممّا كان يستعبده هو حرّ بالكرامة التي ينال. وأرفعُ نوع من الحرّيَّة هو أن نقتني الاستقلال. فكرامة الملك لا ترضى أن يتفوَّق عليها أيُّ طغيان. وذاك الذي انفصل عن الخطيئة هو

مستقلّ. وإذا كانت خاصّيَّة المملكة طابع الاستقلال من كلِّ سيّد، يتبع ذلك أنَّنا نعتبر المضطهَد بيد الشرّ، سعيدًا، لأنَّ هذا الاضطهاد منحه الكرامة الملكيَّة. فلا نتألَّم، يا إخوتي، إن أُبعدْنا عن الخيرات الأرضيَّة: فالذي يترك هذا المنزل، ينزل في الملكوت السماويّ.

هناك عنصران في قلب الخليقة قُسما بحيث تقيم فيهما الطبيعة العاقلة: الأرض والسماء. فموضع الذين نالوا الحياة بواسطة البدن، اللحم والدم، هو الأرض. أمّا السماء فهي منزل الكائنات اللاجسميَّة. فينبغي حقًّا أن تكون حياتنا في مكان ما. إن كنَّا لم نطرَد. إن كنَّا لا نُطرَد من الأرض نبقى دومًا على الأرض. وإن تركناها ننطلق إلى المنزل السماويّ. هل رأيت أين تُوصلنا هذه التطويبة، التي غدت محاميتك، وبسبب الخير الذي تمنحك عبر ما يبدو لك ألَمًا؟ ذاك ما فهمه حقًّا الرسول، حين قال: «كلُّ تأديب لا يُرى في الوقت الحاضر أنَّه للفرح بل للحزن. وأمّا في ما بعد فيعطي الذين يتدرّبون به، ثمرة السلام والبرّ» (عب ١٢: ١١). إذًا، الزهرة التي تسبق الثمار المرجوَّة، هي العذاب. فلنقطِف أيضًا الزهرة من أجل الثمرة: لنكن مضطهَدين، لنكن ملاحقين لكي نجري. وإذا كنَّا نجري فنحن لا نجري من أجل لا شيء. لكن ليكن النداء إلى الملكوت العلويّ، جزاءنا، وهدفَ جرينا. لنجرِ لكي نبلغ الهدف.

وما هو الهدف الذي نطلبه؟ وما هو الأجر؟ وما هو الإكليل؟ يبدو لي أنَّ كلَّ موضوع رجائنا ليس سوى الربِّ بالذات. فهو ذاته! وفي الوقت عينه، الحكَم بين المقاتلين وإكليل الظافرين. فهو من يَقسم

الميراث. وهو الميراث الصالح. وهو الحصَّة الصالحة. وهو من يعطيك حصَّتك. وهو من يغنيك. وهو الغنيّ الذي يدلّك على الكنز، الذي هو كنزك. هو من يجعلك راغبًا في درَّة الخير، وهو في استعداد لكي تشتريها إن كنت له شريكًا صالحًا. وإذا أردنا أن نمتلكها، كما في السوق، لنبادل ما معنا بما ليس معنا. ولا نكتئب إذا اضطُهدنا، بل لنفرح بالأحرى لأنَّ الوضع الذي فيه نُحرَم من القيم الأرضيَّة يطلقنا نحو الخير السماويّ، بحسب كلام ذاك الذي وعدنا بأنَّ المضطهَدين من أجله يكونون سعداء، لأنَّ ملكوت السماوات هو لهم، بنعمة ربِّنا يسوع المسيح، لأنَّ له المجد والقدرة إلى دهر الدهور. آمين.

مكتبة البطريرك أفرام الثاني
ܒܝܬ ܟܬܒܐ ܕܦܛܪܝܪܟܐ ܐܦܪܝܡ ܬܪܝܢܐ
Library of Patriarch Aphrem II

الفهرس

تقديم ٧

التطويبة الأولى: طوبى للمساكين بالروح ١١

التطويبة الثانية: طوبى للودعاء ٢٥

التطويبة الثالثة: طوبى للباكين ٣٥

التطويبة الرابعة: طوبى للجياع والعطاش إلى البرّ ٤٧

التطويبة الخامسة: طوبى للرحماء ٦١

التطويبة السادسة: طوبى لأنقياء القلوب ٧٥

التطويبة السابعة: طوبى لفاعلي السلام ٨٩

التطويبة الثامنة: طوبى للمضطهَدين لأجل البرّ ١٠٥

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ - ٠٣/٣٥٧٣٥٣
isppress@inco.com.lb

005473

منشورات المكتبة البولسية
جونيه - شارع القديس بولس - ص. ب: ١٢٥
هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - ٠٣/٣٥٧ ٣٥٣ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - شارع سيدة النجاة - مقابل مطرانية الروم الملكيين الكاثوليك - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧